هـــــاذم اللـــــذات

المـــــوت

تأليف

محمد بيومى

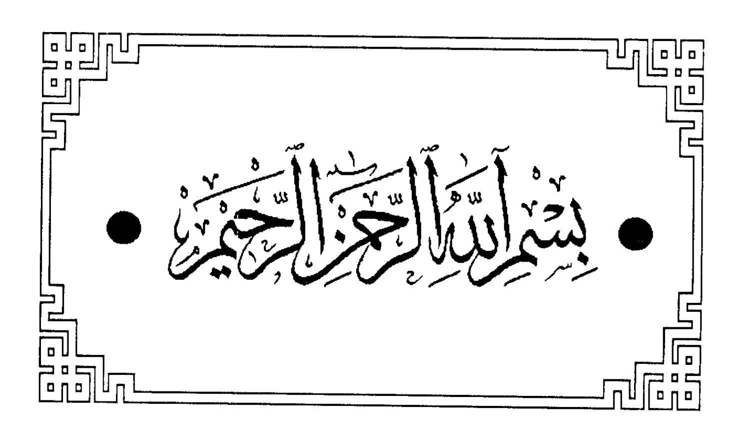
مكتبة الإيمان ـ المنصورة

ت/ ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولي

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢ م

مكتبة الإيمان بالمنصورة
امـــام جامـــعة الأزهـــر
ت : ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصَّر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الديدان والهوام ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزًا ، واتخذوا من دونه حجابًا وحرزًا ؟ ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا ؟

فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصًا للأتقياء، وموعدًا فى حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء ، وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ،والصلاة والسلام على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرا.

وبعـــد :

فإن الموت هو الحقيقة التى لا تقبل الشك ، فهو يؤمن به جميع الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، وبرهم وفاجرهم ، إذ إن كل صغير وكبير يموت، وكل أمير ووزير يموت ، وكل عزيز وحقير يموت، وكل غنى وفقير يموت ، وكل نبى وولى يموت ، وكل شقى وتقى يموت ، وكل زاهد وعابد يموت ، وكل مقر وجاحد يموت ، وكل صحيح وسقيم يموت ، وكل مريض وسليم يموت ، وكل نفس تموت غير ذى العزة والجبروت.

قال الله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ**

عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١].

وقال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون : ١٠] .

واعلم ـ يا عبد الله ـ أن الموت يأتى فجأة ، إذ ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم ، ولا مرض معلوم ، فينبغى على الإنسان ، أن يكون مستعدًا للموت فى كل لحظة لأنه لا يدرى متى يبغته.

ولا يكون الإنسان مستعدًا للموت إلا بأمرين :

الأول: الاستقامة على شرع الله وعمل الصالحات .

الثانى : عدم التعلق بطول الأمل .

عمل الصالحات

إن الذى يعمل الصالحات يعلم أن الموت آتيه لا محالة ، ولذا فهو يستعد لهذا اليوم بأعماله الصالحة التى تدخله الجنة وتباعده عن النار.

وقد كان النبى ﷺ يحث أصحابه على عمل الصالحات استعدادًا لهذا اليوم ، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبى ﷺ أبصر جماعة يحضرون قبرًا فبكى حتى بلَّ الثرى

بدموعه ، وقال: « **إخوانى لمثل هذا اليوم فأعدوا** » [١]

طول الأمل

إن الإنسان إذا تعلق بطول الأمل غفل عن الموت وتكاسل عن الطاعة وسوَّف بالتوبة ، ورغب فى الدنيا ، ونسى الآخرة ، ويظل يلهو ويلعب وينهمك فى ملذات الدنيا ، ثم يفاجأ بالموت وهو يوقظه من هذه الغفلة.

قال تعالى : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الحجر:٣] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: خطَّ النبى ﷺ خطًا مربعًا ، وخط خطًا فى الوسط خارجًا منه ، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط وقال: « هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، وهذا الذى هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[٢].

قال الحافظ ابن حجر : المراد بالأعراض الآفات العارضة له ، فإن سلم من هذا لم يسلم من هذا ، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض أو فقد مال أو غير ذلك بغته الأجل .

والحاصل : أن من لم يمت بالسبب مات بالأجل. وفى الحديث إشارة إلى الحض على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل . وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة فى الإصابة والإهلاك [٣] .

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ،

---

(١) حسن . رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البخارى فى « الرقاق » (٦٤١٧) باب فى الأمل وطوله .

(٣) « فتح البارى » (١١/ ٢٤٢).

وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»[(١)] .

وقول ابن عمر مأخوذ من حديث النبى ﷺ ، وهو متضمن لنهاية قصر الأمل، وأن العاقل ينبغى له إذا أمسى أن لا ينتظر الصباح ، وإذا أصبح لا ينتظر المساء، بل يظن أن أجله مدركه قبل ذلك.

قال ابن الجوزى : يجب على من لا يَدْرى متى يبغته المَوْتُ أن يكون مستعدًا ، ولا يغتر بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الأشياخ ، وأكثر من يموت الشبان ؛ ولهذا يندر من يكْبَرُ ؛ وقد أنشدوا :

يُعَمَّرُ واحِدٌ فَيَغُـر قوْمـًا ... ويَنْسَى مَنْ يَمُوتُ مِنَ الشبابِ

ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه ؛ فإنه لولا طول الأمل ، ما وقع إهمال أصلاً ، وإنما يقدم المعاصى، ويؤخر التوبة ؛ لطول الأمل وتبادر الشهوات ، وتنسى الإنابة لطول الأمل، وإن لم تستطع قصر الأمل ، فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تُمسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك ، فإن رأيت زلة ، فامحها بتوبة ، أو خرْقًا فارقعه باستغفار ، وإذا أصبحت ، فتأمل ما مضى فى ليلك ، وإياك والتسويف؛ فإنه أكبر جنود إبليس :

وَخُـذْ لك مِنْـكَ عَلَى مُهْـلَةٍ ... وَمُقْبِـلُ عَيْـشِكَ لَـمْ يُـدْبِـرِ

وخَفْ هَجْمَةً لا تُقيل العِثَارَ ... وتَطْوِى الْورُودَ عَلَى الْمَصْدَرِ

وَمثـل لِنَسكَ أى الرَّعِيـلِ ... يَضُمُّكَ فـى حَلْـيَةِ الْمَحْشَـرَ

ثم صور لنفسك قِصَر العمر ، وكثرة الأشغال ، وقوة الندم علي التفريط عند الموت، وطول الحسرة على البِدَار بعد الفوت ، وصور ثواب الكاملين وأنت ناقص ، والمجتهدين وأنت متكاسل ، ولا تخْلِ نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها ،

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق (٦٤١٦) باب قول النبى ﷺ : «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ».

فإن النفس كالفرس المتشَيْطن[١] ، إن أهملت لجامه ، لم تأمن أن يرمى بك ، وقد والله دنَّستك أهواؤك ، وضيعت عمرك ، لبِدَارَ البدارَ فى الصيانة ، قبل تلف الباقى بالصبَّابة[٢] ، فكم تعرقل فى فخ الهوى جناح حازم ، وكم وقع في بئر بوار مخمور ولا حول ولا قوة إلا بالله [٣] .

فالله الله عباد الله لا يغرنكم طول الأمل، وجدوا واجتهدوا وكونوا من الموت على وجل ، فإن للموت غادٍ ورائح ، وماس وصابح ، وأنت يا أخى منه على يقين وتحقيق فلم تحد [٤] عن منهاج الطريق ؟ [٥] .

عباد الله عظوا أنفسكم بآبائكم وأحبابكم ، وجيرانكم وإخوانكم ، فإن فى ذلك بلاغًا لمن تذكر ، وعبرة لمن تفكر، إخوانكم كانوا بالأمس معكم يأكلون ما تأكلون ، ويلبسون مما تلبسون ، فأصبحوا اليوم وقد صارت القبور لهم بيوتًا ، وصاروا بين أطباق الثرى خفوتًا ، قد قسم الوارث أموالهم ، ونكح العدو والصديق عيالهم ، وأهان العدو أطفالهم، قد هتكت منهم الأستار ، واستوحشت منهم الديار ، وتحدثت عنهم الأخبار.

رأيت الموت لا يبقى خليلا ... على خلٍ وإن عاش زمانـا

فكن منه على حـذر فإنـى ... رأيت الموت لا يعطى أمانا

أنسنـا غـرة منــه كأنـا ... بما نعنى به يعنـى سوانـــا

وكم للموت من دار ودار ... أبان عميرها عنها فبانـا [٦]

فكم ذى نخوة وعزيز قوم ... أذل الموت عزته فهانــــا

---

(١) أى المتمرد .

(٢) الصبابة : رقة الهوى أو رقة الشوق كما فى القاموس.

(٣) « صيد الخاطر » (ص١٣٩) .

(٤) حاد عن الطريق : انحرف ومال عنه.

(٥) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٦) أبان : أبعد.

كأنا قد نظرنا عن قريب إلى ما قد وعدناه عيانا [١]

فالله الله عباد الله اجتهدوا فى اكتساب الحسنات ، واجتنبوا فى ليلكم ونهاركم السيئات ، فإن ذلك محزن الأهل والأقربين من الأموات واعملوا فى صحتكم قبل السقم ، وقدموا فى شبابكم قبل الهرم ، فإن الموت إذا جاء لا يرجع ، وسهامه إذا فرَّقها لا تدفع وكأسه إذا أدراها لا تنزع ، حياضه مورودة ، وساعاته معدودة ، وأحواله مشهودة ، والحيلة عند نزوله مفقودة غير موجودة [٢] .

واعلم - أخى - المسلم - أن السبب فى طول الأمل أمران :

أحدهما الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ، ويقدر توابع البقاء، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخًا . فإذا صار شيخًا قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السَّفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك ، فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أُخر . وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم ،

---

(١) المصدر السابق (ص١٦٨، ١٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص ١٧٥) .

ويقضى به شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه؛ فتطول عند ذلك حسرته ، وأكثر أهل النار وصياحهم من « سوف » .

والمسوِّف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدًا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخًا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط ، وهيهات! فما يفرغ منها إلا من طرحها.

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا ، والأنس بها . .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عُشر رجال البلد، وإنما قلُّوا لأن الموت فى الشباب أكثر . فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب.

وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدرى أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدًا فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا.

ولو تفكَّر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ، ومن ليل ونهار ، لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له . ولكن الجهل بهذه الأمور وحبَّ الدنيا دعواه إلى طول الأمل ، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدًا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبدًا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدِّر أن تُشَيَّعَ جنازتُه ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه ، وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ، ولم يتصور أن يألفه ، فإنه لم يقع ، وإذا وقع فى دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر . وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره.

وإذا عرفت أن سبب طول الأمل هو الجهل وحبُّ الدنيا ، فعلاجه دفع سببه.

أما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

وأما حبُّ الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذى أعيا الأولين والآخرين علاجه . ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا. فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب . وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدَّر منغص . فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده .

ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال، وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا.

أما من كان مستعدًا فقد فاز فوزًا عظيمًا ، وأما من كان مغرورًا بطول الأمل فقد خسر خسرانًا مبينًا.

فلينظر الإنسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ؟ وكيف تتفتت عظامها؟ وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شىء إلا وهو طعمة الدود، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى . . وكذلك يتفكر فى عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هى التى تجدد ذكر الموت على قلبه، وتدعوه إلى الاستعداد له (١).

---

(١) انظر إحياء علوم الدين (٤/ ٦٦٤ ـ ٦٦٧).

من أقوال السلف فى قصر الأمل

١ ـ قال سلمان الفارسى رضي الله عنه :

ثلاثٌ أعجبتنى ، ثم أضحكتنى !

ـ مؤملُ الدنيا ، والموتُ يطلبه.

ـ وغافلٌ وليس بمغفولٍ عنه .

ـ وضاحكٌ ملء ـ فيه ـ ولا يدرى أساخطٌ ربُّ العالمين عليه أم راضٍ عنه؟ .

وثلاثةٌ أحزنتنى حتى أبكتنى :

ـ فراقُ محمد ﷺ وحزبه والأحبة .

ـ وهولُ المطلع .

ـ والوقوف بين يدى ربى ، لا أدرى إلى الجنة يُؤمرُ بى أو إلى النار!

٢ ـ قال على بن أبى طالب رضي الله عنه :

إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل.

ـ فأما اتباع الهوى : فيصد عن الحق.

ـ وأما طول الأمل : فيُنسى الآخرة .

ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة .

ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة .

ولكل واحد منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل.

٣ ـ قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فى بعض خطبه إن لكل سفرٍ زادًا لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى.

وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ، ترغبون وترهبون.

ولا يطولنَّ عليكم الأمل فتقسوَ قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بُسِطَ أَمَلُ مَنْ لا يدرى لعله لا يُصبح بعد مسائه ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفَات المنايا!

فكم رأيت ورأيتم مَنْ كان بالدنيا مغترًا !

وإنما تَقَرُّ عينُ من وثق بالنجاة من عذاب الله .

وإنما يفرح من أمِنَ أهوال القيامة .

فأما مَنْ لا يداوى كَلْما ، إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟! .

أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى ، وتظهر عَوْلتى [١] ، وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر ، والموازين فيه منصوبة .

لقد عُنيتم بأمر لو عُنيت به النجوم انكدرت [٢] ، ولو عنيت به الجبال لزالت ، ولو عُنيت به الأرض لتشققت .

أما تعملون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ؟ وأنكم صائرون إلى أحدهما؟!

وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ فى خطبة أخرى بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس إنكم لم تُخْلَقوا عبثًا ، ولن تُتركوا سُدى . وإن لكم معادًا يجمعكم الله للحكم فيكم والفصل فيما بينكم ، فخاب وشقى عبدٌ أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شىء، وجنته التى عرضها السماواتُ والأرض .

---

(١) العولة: رفع الصوت بالبكاء والصياح، أو حرارة الحزن والحب من غير نداء ولا بكاء.
(٢) أى تساقطت من أماكنها وتناثرت.

وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف الله واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانيًا بباق ، وشقوة بسعادة .

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟

ألا ترون أنك فى كل يوم تشيعون غاديا أو رائحا إلى الله، قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فيضعونه فى بطن صدع من الأرض، غير موسد ولا ممهد؟ قد خلع الأسلاب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

وايمُ الله إنى لأقول لكم مقالتى هذه ، وما أعلمُ عند أحدٍ منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ؛ ولكنها سننٌ من الله عادلة ، أمرَ فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته . وأستغفر الله.

ووضع كُمَّهُ على وجهه ، فبكى حتى لثقت [1] لحيته ، فما عاد إلى مجلسه حتى مات. رحمه الله .

٤ ـ **وقال عبيد الله بن شُميط** : سمعت أبى يقول :

أيها المغترُّ بطول صحته ، أما رأيت ميتًا قط من غير سقم ؟

أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟

إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك.

أبالصحةِ تغترون ؟ أم بطول العافية تمرحون ؟ أم للموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك .

٥ ـ **وقال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان** ـ وكان له حظ من دين

---

(١) أى ابتلت .

وعقل ـ فقال لبعض أصحابه : أبا فلان ، أخبرنى عن حالك التى أنت عليها ، أترضاها للموت ؟

قال : لا .

قال : فهل أزمعت التحويل إلى حالٍ ترضاها للموت؟

قال : لا والله ما تاقت نفسى إلى ذلك بعد !

قال : فهل بعد الموت دار فيها مُعتمل [1] ؟

قال : لا .

قال : فهل تأمن أن يأتيك الموت وأنت على حالك هذه؟

قال : لا .

قال : ما رأيت مثل هذه حالاً رضى بها وأقام عليها ـ أحسبه قال ـ عاقل .

٦ ـ وقال يزيد الرقاشى رحمه الله :

إلى متى نقول : غدًا أفعل كذا ، وبعد غدٍ أفعل كذا ، وإذا أفطرتُ فعلت كذا ، وإذا قدمتُ من سفرى فعلتُ كذا؟!

أغفلت سفرك البعيد ، ونسيت ملك الموت؟

أما علمتَ أن دون غدٍ ليلة تُخترم فيها أنفسٌ كثيرة ؟

أما علمت أن ملك الموت غير منتظر بك أملك الطويل؟

أما علمت أن الموت غاية كل حى ؟

ثم يبكى حتى يبلَّ عمامته ، ثم يقول :

---

(١) اى عمل.

أما رأيته صريعًا بين أحبابه لا يقدر على ردّ جوابهم ، بعد أن كان جَدِلاً خَصْمـًا ، سمحًا كريمًا عليهم ؟

أيها المغتر بشبابه ! أيها المغتر بطول عمره !

ثم يبكى حتى يبل عمامته !

وقال صنيغم بن مالك البصرى . :

قل للمؤمل والمنايا شُرَّعٌ ماذا يغرُّك يا ابنَ مَنْ لم يَخْلُدِ

يا ابنَ الذين تقطَّعت أوصالُهم ترجو البقاءَ وأنت غيرُ مُخَلَدِ

وأبوك مالكُ كان يأمُلُ ما ترى حتى أتَتْهُ منيَّةٌ لم تُرْدَدِ

وقال ابن أبى عَمْرة :

يا أيُّهذا الذى قد غرَّه الأملُ ودونَ ما يَأمُلُ التنغيصُ والأجَلُ

ألا ترى أنَّما الدنيا وزينتُها كمنزِل الركْب دارًا ثَمَّة ارتحلوا؟

حُتوفها رَصَدٌ وَعَيْشُها نَكَدٌ وصفوها رَنَقٌ ومُلْكُها دُوَلُ (١)

تَظَلُّ تُفْزعُ فى الروعات ساكنها فما يسوغُ له لِيْنٌ ولا جَذَلُ (٢)

كأنه للمنايا والردى عَرَضٌ تظلُّ فيه بناتُ الدهر تنتضلُ (٣)

المرء يشقى بما يسعى لوارثه والقبر وارثُ ما يسعى له الرجلُ

اخوانى ، إلى كم تماطلون العمل وتطمعون فى بلوغ الأمل ، وتغترون بفسحة المهل ، ولا تذكرن هجوم الأجل ؟ ما ولد ثم فللتراب ، وما بنيتم فللخراب ، وما جمعتم فللذهاب ، وما عملتم ففى كتاب مُدّخَرٌ ليوم الحساب .

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكان المـوتُ راحة كل حى

---

(١) رنق : كَدِر . دول : ينتقل من حال إلى حال .

(٢) الجذل : الفرج .

(٣) بنات الدهر : صروفه . تنتضل : تستبق .

ولكنا إذا متنا بعثنا   وتُسألُ بعدها عن كل شيء [١]

يا أسيرًا فى قبضة الغفلة ، يا صريعًا فى سكرة المهلة ، يا ناقض العهد ، انظر لمن عاهدت فى الزمن الأول ، أكثر العمر قد مضى وأنت تتعلَّل ، يا مدعوًا إلى نجاته وهو يتوانى ، ما هذا الفتور والعمر قد تدانى، كأنك بالدمع يجرى عند الموت هتَّانا [٢] .

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾

يامن هو على محبة الدنيا مُتهالك ، أمَا علمت أنك عن قليل هالك، أما تيقنت أن الدنيا محبوب تارك ، ثم لست لها بعد العلم بها بتارك، قدِّر أنك مَلكْت الممالك ، أمَا الأخير سَلْبك من أهلك ومالك ، هذا حسام الموت مَسْلول ، ليس بكالَ ولا مَفْلول ، وكلُّ دم أراقه مَطْلول، أذل والله أصعب الحُمْس [٣] وفتك قَبْرا بالأسُود الشمْس [٤] ، وفلَّ السيفَ ولم يُفل بالترس ، وساوَى فى القبر بين الزنج والفُرس ، وأعاد الفصحاء تحت البلاء كالخُرس ، ومحا بالترح أثر الفرح بالعُرس :

يَغْدو ابنُ آدم للمعاش فيل   قاه الحِمَام بأضْيَق الطرقِ
لا يَبْهَجن بملْكـه مَلِـك   فالبَدْر غـايتُه إلى المَحْقِ

أين الوالدون وما ولدوا ؟ ، أين الجبارون ؟ ، وأين ما قصدوا ؟ ، أين أرباب المعاصى على ماذا وردوا ، أما جنوا ثمراتِ ما جنوا وحصدَوا، أما قَدِموا علي أعمالهم في مآلهم ووَفدُوا ، أما خلَوا فى ظلمات القبور ؟ بكوا والله وانفردوا ، أما ذلوا وقلوا بعد ذلك أن عتْوا ومَردُوا ، أمَا طلبوا زادا يكفى فى طريقهم ففقدوا ، أما حلَّ الموتُ فَحلُّ عَقْد ما عقَدوا، عاينوا والله كل ما قَدَّموا ووجدوا ، فمنهم أقوامٌ شَقُوا وأقوامٌ سَعِدوا :

---

(١) « بحر الدموع » ابن الجوزى (ص٣١) .
(٢) المصدر السابق (ص١١) .
(٣) الحمس : جمع أحمس وهو الشديد الصلب فى القتال.
(٤) الشمس : جمع أشمس وهو القوى الشديد .

لا والدٌ خالدُ ولا ولَدُ	كلٌ جليد يخُونه الجَلَدُ
كأن أهل القبور لم يسكنوا الدُّ	ورَ ولم يَحْيَ منهمُ أحدُ
ولم يكونوا إلا كهيئتهم	لم يولدَوا قَبْلها ولم يَلِدوا
يامن نَعَى من مضى كذاك غدًا	تُنعى ، فبادْر فقد أتاك غَدُ
يا ناسى الموت وهو يذكره	مالك بالموت إذ أتاك يَدُ
دارُك دارٌ يموت ساكنُها	دارك يُبْلى جديدَها الأبَدُ
تبكى على من مضى وأنت غدا	يوردك الموتُ فى الذى وردُوا
لو كنت تدرى ماذا يريد بك الـ	ـموْت لأبكى جفونك السُّهْدُ

أين الذى ملكوا ونالوا ؟ زالوا ، وستئول إلى ما إليه آلوا ، هذا مصيرنا يا معاشر الغافلين ، واللحود بيوتنا بعد الترف واللين ، والقيامة تجمعنا وتُنصب الموازين ، والأهوال عظيمة فأين المتفكر الحزين ؟ ﴿ **إنما تُوعدون لآت وما أنتم بمعجزين** ﴾ .

يارهين الآفات والمصائب ، يا أسير الطارقات النوائب ، إياك وإيّا الآمالِ الكواذب فالدنيا دارٌ ولكن ليست بصاحب ، أما أرتك فى فعلها العجائب فيمن مشى فى المشارق والمغارب ، ثم أرتك فيك شيب الذوائب، إن سهام الموت لصوائب ، لا يردها محارب ، ولا يفوتها هارب ، تدب إلينا دبيب العقارب ، بَيْنا نسمع صوت مزهر صار صوت نادب ، يا أسير حب الدنيا إن قتَلَتْك مَنْ تطالب ، كأنك بك قد بِتْ فرحا مسرورا فأصبحت تَرِحا مَثْبورا ، زتُرِك مالك لغيرك موفورا ، وخرج من يدك فصار للكل شُورى ، وعاينت ما فعلت فى الكتاب مسطورا ، وعلمت أنك كنت فى الهوى مغرورًا ، واستحالت صَبَا الصِّبَا فصادت دَبُورا، وأسكنت لحدًا تصير فيه مأسورا ، ونزلت جَدَثا خَرِبا إذ تركت قصرا معمورا ، ودخلت فى خبر كان ﴿ **وكان أمر الله قدرا مقدورا** ﴾.

وما هذه الدنيا بدار إقامة ... فيَحْزن فيها القاطنُ المترحلُ
هى الدار إلا أنها كمفازَة ... أناخَ بها ركبٌ وركبٌ تَحمَّلُوا
وإنا لمن مَر الجديدين فى الوغى ... إذا مر منها جحْفل كر جحْفَلُ
تجرد نَصْلا والخلائقُ مِفْصَلٌ ... وتُنْبض سهمًا والبرية مقتلُ
وما خَلْفَنا منها مفَرٌ لهاربٍ ... فكيف لمن رام النجاة التخيلُ
وكلٌّ وإن طال الثواء مصيره ... إلى مَوردٍ ما عنه للخَلْق مَعْدَلُ

الموت مُسْرع مجد غير رائث ، والأموال عن قليل تَمْضى للوارث، وكأنك بوقوع الحادثات وحصاد الحارث ، يا طويل الأمل هل قلبك لابث؟، لا تسمعن المحال فلست بماكث ، يا مطالبا بالجد وهو لاعب عابث ، يا معاهدا باللسان والعزْم ناكث ، يا من أعماله إذا فتشت خبائث ، صَرح الشيب وطال ما مجمَج (١) ووَضح فجره وما كان قد تبلج ، أوضح طريق الجذر وبين المنهج،أين الشباب ؟ رحَل مُسرعًا وهملج (٢) ، إن نار الفراق فى القلب تتأجج ، إن فؤاد المتفكر يكاد أن ينضج ، هذه خيول الرحيل قد أقيمت تُسْرَج ، والشكوك قد أزيلت والحق أبلج ، هذا وأنت بالمعاصى مُغْرى وتَلْهَج ، لك كأس من المنون صِرف لا يُمزج ، يا من هو فى الكفن عن قليل مُدرج ، يالابسًا حُلة من البلاء لم تُنْسج ، يا من بضاعته إذا نُقدت كلها بهرْج ، يا سالكا طريقُ الهوى عَوْسج (٣) ، كيف الطمع فى المرتجَى والباب مُرْتج ، يا من ضيقت الذنوب خناقه أين المخرج؟، يا عظيم فقرك فى القبر من منك أحوج ، ما هذا الغرور ؟ أى مطمئن لم يُزعَج ؟ :

أخْلَق الدهرُ الشبابَ الحسنَا ... ما أظن الوقتَ إلا قد دَنـا
قد قطَعْنا فى التصابى بُرْهة ... وجرَرْنا فى الذنوب الرَّسَنَا
وركبنـا غيـنا جهلاً بـه ... فوجدنـاه علـينا لالنـا
وشرينا الدونَ بالدين فما ... عُذْر من قد باع بيعًا غُبنـا

(١) مجمج فى خبره : لم يبينه .
(٢) هملج : أسرع فى جريه .
(٣) العوسج : المموج .

لقد بان السبيل ولاح المنهج ، فما للقلب عن الهدى قد عرج ، أما يُزْعجك الترهيب؟ أما يشوقك الترغيب ؟ إلام تروغ عن النصح روغان الذيب ، وتلفت إلي أحاديث المنى الأكاذيب ؟ قف على باب ﴿ **إن كنا لخاطئين** ﴾ لتسمع : ﴿ **لا تثريب** ﴾ ، من التوفيق رفض التوانى ، ومن الخذلان مسامرة الأمانى .

إخوانى : نَذيركم قد صدَق ، والمجتهد قد سبَق ، وقد مضى نهارُ العمر وبقى الشفَق، وآخر جَرْعة اللذة شَرَق ، وصاحب الدنيا منها على فرَق . رب غُصْن ناضر كُسِر إذا سبق ، رب زرع قامت سوقه رماه الغَرق. أين الرفيق ساقه سوّاق ما رفَق ، هذا وكلكم يدرى أين انطلق ، أما رأيتم مضجعه فى القبر بالحَدَق ، وعجبا لقلب المتفكر كيف ما احتراق؟، أما شاهدتموه ، وقد تقطعت منه العُلَق (١) ، وتقمَّص بعد عُريه جلبابَ الخوف والفَرق ، وخرس لسانه ، وقد طال ما نطق :

فما تزود مما كان يجمعه إلا حنُوطًا غداةَ البين فى خِرقِ

وغير نفخة أعوادٍ (٢) يُشَبُّ له وقل ذلك من زادٍ لُمنطلِقِ

أيها المتيقظون وهم نائمون ، أتبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون ؟ ، كونوا كيف شئتم فستُنْقلون؟ ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ يا مقيمين ستْرحلون ، يا مستقرين ما تُتْرَكون ، يا غافلين عن الرحيل ستَظعنون ، أراكم متوطنين تأمنون المنون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾.

طول نهاركم تلعبون وطول ليلكم ترقدون ، والفرائض ما تؤدون ، وقد رضيتم عن الغالى بالدون ، لا تفعلوا ما تفعلون ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ أما الأموال فتجمعون والحق فيها ما تُخرجون ، وأمّا الصلاة فتضيعون وإذا صليتم تنقرون . أترى هذا إلى كم يكون ؟ ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ أين العتاة المتجبرون ؟، أين الفراعنة المتسلطون ؟ ، أين أهل الخيلاء المتكبرون؟ ، قدروا أنكم صِرتم كهم أما تسمعون ؟ ، ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ ما نفعتهم الحصون ولا رد المال المصون ، هبت زعزع

---

(١) العلق : جمع علقة وهى ما يتعلق به .

(١) الأعواد : الخشب .

الموت فكسرت الغصون ، قدروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ تقلبوا من اللذات فى فنون ، وأخرجهم البطر إلى الجنون، فأتاهم ما هم عنه غافلون ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون**﴾ .

لو حصل لكم كل ما تحبون ونما جميع ما تؤتون ، ونلتم من الأمانى ما تشتهون ، أينفعكم حين ترحلون ؟ ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ . إلى متى وحتى متى تُنصحون وأنتم تكسبون الخطايا وتجترحون ، أأمنتم وأنتم تسرحون ذِئب هلاك فلا تبرحون ؟ ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾.

لا تفرحون بما تفرحون فإنه لغيركم حين تُطرحون ، وأيكم مَنْ يراكم من يراكم تمرحون ، قد خسرتم إلى الآن فما تربحون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

ويحكم الدنيا دار ابتلاء وفنون ، وقد زجركم عنها المفتون ، وكم رأيتم من هالك بها مفتون وكأنكم بكم قد حُملتم على المُتون ، كم أدلكم على النظافة وتختارون الأتون[١] .

(١) « التبصرة » ابن الجوزى (٢/١٦٦ ـ ١٧١)

كفى بالموت واعظًا

كان أبو الدرداء ﷺ إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنا رائحون أو روحوا فإنا غادون موعظةٌ بليغة وغفلة سريعة كفى بالموت واعظًا يذهب الأول فالأول ويبقى الآخر لا حلم له ، وكان يقول : يا تراب ما أسكن ظواهرك وفى داخلك الدواهى .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز (١) إلى المقبرة فلما نظر إلي القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال : يا أبا أيوب هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء وأصابت الهوام في أبدانهم مقيلاً ، ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فقال : انطلق بنا فوالله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وشيع رحمه الله مرة جنازة من أهله ثم أقبل على أصحابه ووعظهم فذكر الدنيا وذمها وذكر أهلها وتنعمهم فيها وما صاروا إليه بعدها من القبور فكان من كلامه أنه قال: إذا مررت بهم فنادهم إن كنت مناديًا، وادعهم إن كنت داعيًا ومر بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم ، سل غنيهم ما بقى من غناه ؟ سل فقيرهم ما بقى من فقره ؟ واسألهم عن الألسن التى كانوا بها يتكلمون ، وعن الأعين التى كانوا للذات بها ينظرون ، وسلهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة وما صنع بها الديدان تحت الأكفان وأكلت اللحمان وعفرت الوجوه ومحت المحاسن وكسرت الفقارة وبانت الأعضاء ، ومزقت الأشلاء ، وأين حجابهم وقبابهم ؟ وأين خدمهم وعبيدهم وجمعهم وكنوزهم ؟ وكأنهم ما وطئوا فراشًا ولا وضعوا هنا متكئا ولا غرسوا شجرا ، ولا

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص الأموى أمير المؤمنين أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، ولى أمرة المدينة للوليد بن عبد الملك وكان مع سلميان ابن عبد الملك كالوزير ، وولى الخلافة بعده فعد مع الخلفاء الراشدين ، مات سنة إحدى ومائة وله أربعون سنة ومدة خلافته سنتان ، ومناقبه كثيرة .

راجع ترجمته من « حلية الأولياء » (٥/٢٥٣) وقد ألف الإمام ابن الجوزى كتابًا حافلاً فى مناقبه .

أنزلوهم من اللحد قرارا أليسوا فى منازل الخلوات ؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟ أليسوا فى مدلهمة ظلماء ، قد حيل بينهم وبين العمل ، وفارقوا الأحبة ؟ .

وكم من ناعم وناعمة أضحوا ووجوهم بالية ، وأجسادهم من أعناقهم بائنة ، وأوصالهم ممزقة ، وقد سالت الحدق على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا ، ودبت دواب الأرض فى أجسادهم ففرقت أعضاءهم ثم لم يلبثوا إلا يسيرا حتى عادت العظام رميما ، فقد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السعة إلى المضائق ، قد تزوجت نساؤهم وترددت فى الطرق أبناؤهم ، وتوزعت القرابات على ديارهم وقراهم ، فمنهم والله الموسع له فى قبره ، الغض الناظر فيه المتنعم بلذاته .

يا ساكن القبر غدًا ما الذى غرّك من الدنيا ؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد ؟ وأين ثمارك اليانعة ؟ وأين رقاق ثيابك ؟ وأين طيبك وبخورك ؟ وأين كسوتك لصيفك ولشتائك ؟ أما رأيته قد زل به الأمر فما يدفع عن نفسه دَخَلا وهو يرشح عرقًا ويتلمظ عطشا يتقلب فى سكرات الموت وغمراته ، جاء الأمر من السماء ، وجاء غالب القدر والقضاء ، هيهات يا مُغَمِّض الوالد والأخ والولد وغاسله يا مُكَفِن الميت ويا مدخله القبر وراجعًا عنه ، ليت شعرى بأى خديك بدأ البلى ، يا مجاور الهلكات صرت فى محلة الموت. ليت شعرى ما الذى يلقانى به ملك الموت عند خروجي من الدنيا ، وما يأتينى به من رسالة ربى ، ثم انصرف فما عاش بعد ذلك إلا جمعة [١] .

وقال ثابت البنانى أتيت القبور فقلت : يا أهل القبور فلم يجبنى أحد فأجاب عقلى نحن مثلك كنا ، وكما نحن تكون .

ولما حضرت مروان بن عبد الملك الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يغسل ثوبه بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال مروان : ليتنى كنت غسالاً آكل من كسب يدى يومًا بيوم ولم آل من أمر الدنيا شيئًا فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين

---

(١) « مناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزى (ص٢٥٥ ـ ٢٥٧) و«الحلية» (٥/ ٢٣٥) .

؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز فأعجبه أمره وقال له : يا أمير المؤمنين يعجبنى ما حال من لونك ونحل من جسمك فقال له عمر بن عبد العزيز : يا فلان كيف لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالت على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصديد والدود من منخرى لكنت لى أشد نكرة ؟! .

وكتب رحمه الله إلى بعض مدائن الشام : أما بعد فكم للتراب فى جسد ابن آدم من مأكل وكم للدود فيه من طريق مخترق وإنى أحذركم ونفسى العرض على الله .

وشيع الحسن رحمه الله جنازة فجلس على شفير القبر فقال : إن أمرًا هذا آخره لحقيق أن يزهد فى أوله . وإن أمرًا هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره.

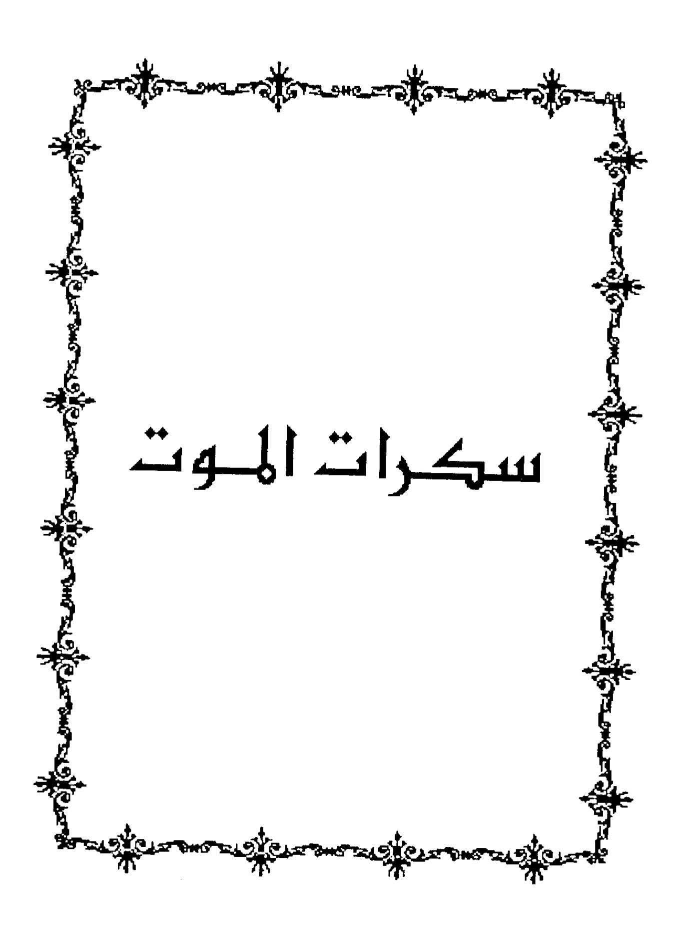
وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم مضى من عمرك ؟ فقال الرجل: ستون سنة . فقال له الفضيل : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له الفضيل أتعرف تفسيرها؟ . من عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول ومن علم أنه مسؤول فليعد للسؤال جوابًا ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال الفضيل : يسيرة. قال : وما هى ؟ قال : تحسن فيما بقى يُغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقى أُخِذت بما مضى وما بقى .

فالله الله عباد الله استعدوا للموت ، فكأنه نزل بكم فأرمل النسوان، وأيتم الولدان ، وفرق الإخوان ، فوالله يا أيها الإنسان وإنما أنا وأنتم ذلك الإنسان ، لو لم يكن ماء ولا ظلال ، ولا جواب ولا سؤال، ولا نعيم ولا ثواب ، ولا جحيم ولا عقاب ، لكان فى الموت وسكرته، والقبر وظلمته ، واللحد وضغطته ، ما يمنع العاقل اللبيب ، عن كسب الخطايا والذنوب ، فكيف ومن وراء ذلك هول مهول ، وشرح يطول؟ ، من الصور ونفخته ، والنشور وروعته ، والصراط ورقته ، ومساءلة الله

تعالى للعبد وتوبيخه ، فما يكون جوابك أيها المغرور ، إذا وقفت بين يدى العالم الغفور ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟ فأظهر لك قبائحك ، ونشر لك فضائحك ، واستشهد عليك جوارحك ، فإن عفا عنك فأنت من الفائزين ، وإن طالبك بما قدمت يداك فأنت من الخاسرين، عفا الله عنا أجمعين ، وغفر لنا ذنوبنا فهو خير الغافرين آمين رب العالمين (١) .

---

(١) « بستان الواعظين » ابن الجوزى . ص١٧٦ .



سكرات الموت

سكرات الموت هي الشدائد التي يكابدها الإنسان وقت الاحتضار.

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق : ١٩] .

لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه : ليس كذلك ولكن قولي: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ .

ولما اشتد المرض بالرسول ﷺ وضعوا له بين يديه ركوة فيها ماءًا فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : « **لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات** »(١) ثم قال النبي ﷺ لابنته فاطمة : « **إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحدًا** »(٢) ومن شدة ما نزل بالنبي ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها : لا أغبط أحدًا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ .

وإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ المعصوم من الذنوب ، فكيف يكون حالنا نحن وقد انهمكنا في الذنوب والمعاصي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؟

فتفكر ـ يا عبد الله ـ في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فياللموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله واعلم أن للموت ألمًا لا يعلمه إلا من نزل به ، وسكرات لا يعرفها إلا من أحاط به الموت، وغمرات مزعجات ونزعات للروح فظيعات ، ويقال في الأثر : إن الموت أشد من ضرب بالسيوف، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض وذلك أن ضرب البدن بالسيف إنما يؤلم مع بقاء قوة في البدن ، ولذلك

---

(١) رواه البخاري في « المغازي » (٤٤٤٩) باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(٢) حسن . رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٣٤) وابن ماجه في « الجنائز » (١٦٢٩) باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٢١٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

يستغيث المضروب ويصيح أما من نزل به الموت فإنه ينقطع صوته عن الصياح لضعف قوته ! فإن الموت قد هدَّ كل جزء من أجزاء الجسم فلم يترك قوة للاستغاثة ، فإن بقى فيه بعض قوة سمع له عند نزع الروح وجبها غرغرة من حلقه وصدره وقد اصفر لونه ، وارتعدت (١) فرائصه ، وبسطت يداه إشارة إلى أنه خرج من الدنيا ولم يأخذ منها شيئًا . .

ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة حتى تبلغ الروح الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، وتحيط به الحسرة والندامة . .

ولما حضرت الوفاة عمرو بن العاص قال له ابنه عبد الله: (يا أبتاه إنك كنت تقول لنا : ياليتنى كنت ألقى رجلا عاقلاً لبيبًا عند نزول الموت حتى يصف لنا ما يجد، وأنت ذلك الرجل، فصف لى الموت فقال: «والله يا بنى كأن جُنَّتى فى جب نار ، وكأنى أتنفس من سَمِّ إبرة (أى ثقب إبرة) وكأن غصن شوك يجذب من قدمى إلى هامتى ثم أنشد يقول:

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى قلال الجبال أرعى الوعولا

فتمنى عمرو بن العاص أنه كان راعيًا للتيوس الجبلية فى أعالى الجبال وقممها ، ولم يتول إمارة من الإمارات ، ولم يتملك مالا من الأموال. . .

قال أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ : اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بِصدَدِه ، كما قال بعض الحكماء : كَرْبٌ بِيَد سواك لا تدرى متى يغشاك!!

---

(١) ارتعدت : أي اضطربت ، وفرائصه : جمع لفريصة وهى لحمة بين الجنب والكتف ، أو بين الثدى والكتف ترعد وتضطرب عند الفزع والخوف.

وقال لقمان لابنه : يابنى ! أمر لا تدرى متي يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات ؛ لَتَكَدَّرت عليه لذته وفسد عليه عيشه . وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل !! فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور [1] .

الحكمة من شدة الموت على الأنبياء

الحكمة فى شدة الموت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هى : أن يتسلى المؤمنون بما وقع للأنبياء من ذلك . . وأن يتصبروا ، وأن يكون هذا مكملاً لمراتبهم العلية ، ومقاماتهم السامية . .

قال القرطبى : لتشديد الموت على الأنبياء فائدتان:

إحداهما : تكميل فضائلهم ، ورفع درجاتهم ، وليس ذلك نقصًا ولا عذابًا بل هو كما جاء : « **إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**» .

والثانية : أن تعرف الخلق مقدار ألم الموت ، وأنه باطن ، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقًا ، ويرى سهولة خروج الروح فيظن سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون فى خبرهم شدة ألم الموت مع كرامتهم على الله تعالى قطع الخلق بشدة الموت الذى يقاسيه الميت مطلقًا لإخبار الصادقين عنه ما خلا الشهيد قتيل الكفار فإنه لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم مس القرصة علي ما ثبت فى الحديث (ا.هـ).

(١) « إحياء علوم الدين » (٤/ ٤٤٥).





ما يعين على ذكر الموت والاستعداد له

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تذكرنا بالموت لتلين قلوبنا ، وتقشعر جلودنا ، وتتعظ نفوسنا فإن نسيان الموت ضلال مبين قال الشاعر:

صاح شمر ولا تزل ذاكر المو ت فنسيانه ضلال مبين

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ وقوله عز وجل: ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشعادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ .

كما وردت في السنة النبوية بعض الأحاديث التي تحض على ذكر الموت فمن ذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » يعني الموت [١] .

قال أبو حامد الغزالي : « معناه نغصوا بذكره اللذات حتي ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى. وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا» [٢] .

وعن ابن عمر ﷺ قال : كنت مع رسول الله ﷺ فجاء رجل من الأنصار فسلم على النبي ﷺ ثم قال : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال: « أحسنهم خلقا » قال : فأي المؤمنين أكيس ؟ قال: أكثرهم للموت ذكرًا وأحسنهم لما بعده استعدادًا ، أولئك الأكياس » [٣] .

ما أحسن حال من ذكر الموت فعمل لخلاصه قبل الفوت ، وأشغل نفسه بخدمة مولاه ، وقدم من دنياه لأخراه ، ورغب في دار لا يزول نعيمها ولا يهان كريمها.

---

(١) صحيح . رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢) « إحياء علوم الدين » (٤ / ٤٣٤).

(٣) حسن . رواه ابن ماجه والطبراني.

الموت لاشك آت فاستعد له إن اللبيب بذكر الموت مشغول

فكيف يلهو بعيش أو يلذ به مَن التراب على عينيه مجعول؟ (١)

قال القرطبى : قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ : قوله عليه السلام: « **أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت** » كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ فى الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه تمنيها فى المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففى قوله عليه الصلاة والسلام : « **أكثروا ذكر هاذم اللذات** » مع قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . ما يكفل السامع له ، ويشغل الناظر فيه ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :

لا شىء مما ترى تبقي بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والإنس والجن فيما بينهما ترد

أين الملوك التى كانت لعزتها من كل أوْب إليها وافد يفد؟

حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من ورْده يوما كما وَرَدُوا

قال إذا ثبت ما ذكرناه ، فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ، ونعمة ومحنة ، فإن كان فى حال ضيق ومحنة . فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم ، والموت أصعب منه ، أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها ، والسكون إليها ، لقطعه عنها ، ولقد أحسن من قال:

اذكر الموت هاذم اللذات وتجهز لمصرع سوف يأتى

وقال غيره :

---

(١) « بستان الواعظين » ابن الجوزى (ص ١٥٠) .

واذكر الموت تجد راحة   فى إذكار الموت تقصير الأمل

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم ، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك ، مستعدًا لذلك ، وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة : الرحيل ، الرحيل. فلما توفى فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه ، فقيل : إنه قد مات فقال :

ما زال يلهج بالرحيل وذكره   حتى أناخ ببابه الجمـــال

فأصابــه متيقـظًا متشمــرًا   ذا أهبة لم تلهه الآمـــال

وكان يزيد الرقاشى يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طالبه والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ، ثم يبكى حتى يسقط مغشيا عليه.

وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ يجمع العلماء فيتذاكرون الموت ، والقيامة ، والآخرة ، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال أبو نعيم : كان الثورى إذا ذكر الموت لا ينتفع به أيامًا فإن سئل عن شيء قال: لا أدرى لا أدرى .

وقال الدقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف والتكاسل فى العبادة [(١)] .

وقيل للربيع ـ رحمه الله ـ : ألا تجلس معنا نتحدث ؟ فقال: إن ذكر الموت إذا فارق قلبى ساعة فسد عَلَىّ قلبى .

عباد الله اسعوا فى فكاك رقابكم ، وأجهدوا أنفسكم فى خلاصها قبل أن تزهق ، فوالله ما بين أحدكم وبين الندم ، والعلم بأنه قد زلت به القدم ، إلا أن يحوم عقاب[(١)] المنية عليه ، ويفرق سهامها إليه، فإذا الندم لا ينفع ، وإذا العذر لا يصنع ، وإذا النصير

(١) « التذكرة » ص٨ ـ ١١ باختصار يسير .

لا يدفع ، وإذا الشفيع لا يشفع ، وإذا الذى فات لا يسترجع ، وإذا البائس المحابى به فى النجاة لا يطمع ، فكأنى بك يا أخى وقد صرخ عليك النسوان ، وبكى عليك الأهل والإخوان ، وفقدك الولدان ، ونفخ لفرقتك الجيران ، ونادى عليك المنادى . قد مات فلان بن فلان ، ثم نقلت عن الأحباب ، وحملت إلى ارماس التراب ، وأضجعوك فى محل ضنك ، قصير السماك ، مهول منظره ، كثير وعره ، مغشى بالوحشة ، عرفته مهول الصريح ، مطبق الصفيح ، على غير مهاد ولا وداد ، ولا مقدمة زاد ولا استعداد :

المرء يخدعه مناه والدهر يسرع فى بلاه

يا ذا الشبى لا تكن ممن تعبده هواه

واعلم بأن المرء مرتهن بما كسبت يداه

والناس في غفلاتهم والموت دائرة رحاه

الحمد لله الذى يبقى ويهلك ما سواه [١]

وأنشدوا :

يا من يمـــوت ويســـأل عما يقول ويفعـــل

إن الموكـــل بالنفـــوس إذا أتى لا يمهـــل

والنار منزل من عصى والنار بئس المنـــزل

ذكر عن أبى العتاهية ـ رحمه الله ـ أنه دخل يومًا على الرشيد فقال له الرشيد : أنشدنى ، فقال : اجعل لى الأمان ، قال : أنت آمن ، فأنشأ وأنشد :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس وإن تسترت بالحجاب والحرس

واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس

ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوبك الدهر مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس [٣]

---

(١) العقاب : طائر من الجوارح . (٢) « بستان الواعظين » ابن الجوزى (ص ١٥٠ ـ ١٥١) .

(٣) « بستان الواعظين » (ص ١٧٣) .

واعلم ـ أخى المسلم ـ أن هناك أمورًا تعين على ذكر الموت منها :

أولاً : زيـارة القبـور :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال « **استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنت فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت**»(١) .

فزيارة المقابر تكون ذكرى للموت وموعظة ، فمن نظر إلى الموتى فى قبورهم علم أنه سيلحق بهم ، وليتفكر فيمن ضمت هذه المقابر من الأصاغر والأكابر ، ومن ملك ومملوك ، وأمير وصعلوك ، وكيف أن الموت حل بهم « ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر ، ونافس الأصحاب والعشائر ، وجمع الأموال والذخائر ، فجاءه الموت فى وقت لم يحتسبه ، وهول لم يرتقبه فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه ، ودرج من أقرانه ، الذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال ، كيف انقطعت آمالهم ؟ ، ولم تغن عنهم أموالهم ، ومحا التراب محاسن وجوههم وافترقت فى القبور أجزاؤهم ، وترمل بعدهم نساؤهم ، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم.

وليتذكر ترددهم فى المآرب ، وحرصهم على نيل المطالب ، وانخداعهم لمؤاتاة الأسباب ، وركونهم إلى الصحة والشباب ، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لابد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا فى أغراضه ، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله وقد سالت عيناه ، ويصول ببلاغة نطقه ، وقد أكل الدود لسانه ، ويضحك لمؤاتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه ، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله ، وعند هذا التذكر والاعتبار ، يزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ، ويقبل على الأعمال الأخروية ، فيزهد فى دنياه، ويقبل على طاعة مولاه ، ويلين قلبه ، وتخشع جوارحه ، والله أعلم(٢) .

(١) رواه مسلم . (٢) التذكرة ص١٤ .

ثانيا : كتابة الوصية :

ينبغى على العبد أن يسارع بكتابة وصيته ، لقوله ﷺ : « **ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين ، وله شيء يريد أن يوصى فيه إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه**» قال ابن عمر : « ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندى وصيتى » (١) .

* ويستحب للمورث أن يوصى لأقربائه الذين لا يرثون منه، لقوله تبارك وتعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة : ١٨٠] ولكن ينبغى أن لا تزيد هذه الوصية على ثلث التركة، بل الأفضل أن ينقص عن الثلث ، ففى الصحيحين أن سعد بن أبى وقاص قال: يا رسول الله إن لى مالاً كثيرًا ، وليس يرثنى إلا ابنة لى ، أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال: **لا**، قال: قلت: بشطر مالى؟ قال : **لا** ، قلت: فثلث مالى ؟ قال: **الثلث ، والثلث كثير ، إنك يا سعد أن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس** » ، وفى صحيح البخارى : أن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: « **الثلث والثلث كثير** » .

* وأما الوصية للوالدين والأقربين الذين يرثون من الموصى فلا تجوز لأنها منسوخة بآية الميراث ، وبين ذلك رسول الله ﷺ أتم البيان فى خطبته فى حجة الوداع فقال: « **إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث** » (٢) .

* ويحرم الإضرار فى الوصية ، كأن يوصى بحرمان بعض الورثة من حقهم من الإرث ، أو يفضل بعضهم على بعض فى الإرث ، وإن فعل المورث ذلك ، فإن وصيته باطلة مردودة لقول النبى ﷺ : «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» (٣) .

* ويجب على المسلم أن يحصى ماله وما عليه من الحقوق فى وصيته ، وما لديه

---

(١) متفق عليه .

(٢) حسن. رواه أبو داود والترمذى والبيهقى .

(٣) متفق عليه .

من الأمانات والوصايا حتى لا تضيع حقوق بعض الناس عنده فيتحمل هو إثم ضياع هذه الحقوق .

* وينبغى على المسلم أن يوصى أهله بتقوى الله تعالى وطاعته ، وأداء الواجبات وترك المحرمات ، وعدم النياحة عليه وضرب الخدود وشق الجيوب والتلفظ بما يغضب الرب.

* ويستحب للموصى أن يُشهد على وصيته شاهدى عدل حتى لا يقع فيها تغيير أو تبديل بعد وفاته.

* ويستحب له أن يبدأ وصيته بالبسملة ثم بحمد الله ، ويصلى على النبى ﷺ . ثم يقول بعد ذلك مثلاً : فهذا ما أوصى به الفقير إلى عفو ربه ، وهو فى حالته المعتبرة شرعًا من كمال عقله وسلامة إدراكه. أوصى وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور أول ما أوصى به أهل بيتى وذريتى أن يتقوا الله عز وجل وأن يمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه ، وأن يحافظوا على الصلوات الخمس ، وأن يتمسكوا بدين الإسلام ويثبتوا عليه ، وأن يحافظوا على التراحم والترابط فيما بينهم ، وأن يعلموا أن هذه الدنيا إلى زوال ، وأن السعيد من يلقى الله عز وجل وهو عنه راض. ثم يذكر بعد ذلك بقية وصيته .

ثالثا : الصبر على المرض :

ينبغى على المريض أن يرضى بقضاء الله ويصبر على قدره، ذلك خير له ، قال رسول الله ﷺ : « **عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له** » (١) .

وعن عطاء بن أبى رباح ، قال : قال لى ابن عباس - رضى الله عنهما - ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى ، قال: هذه المرأة السوداء ، أتت النبى ﷺ فقالت:

(١) رواه مسلم.

إنى أصرع، وإنى أتكشف ، فادعُ الله تعالى لى فقال: « **إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك** » . فقالت: أصبر ، ثم قالت : إنى أتكشف فادعُ الله أن لا أتكشف ، فدعا لها » (١) .

* وليعلم المريض أن المرض يُذهب الخطايا ، وكلما اشتد المرض كان أذهب لها ، فعن أبى سعيد ، وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال: « **ما يصيب المسلمَ من نَصَب ، ولا وَصَب ، ولا حَزَنَ ، ولا أذى، ولا غَمٍ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفّر الله بها من خطاياه**»(٢) والنصب : التعب ، والوصب : المرض .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: دخلنا على النبى ﷺ وهو يوعك فمسسته فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك وعكًا شديدًا ، فقال: «**أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم** » فقلت : إن لك أجرين فقال : «**نعم والذى نفسى بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها**» (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**» (٤) .

* وليعلم العبد أن تشديد البلاء يختص بالأخيار ، فقد سئل النبى ﷺ عن أى الناس أشد بلاء ؟ قال: « **الأنبياء، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة**» (٥).

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك فوضعت يدى عليه فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف ، فقلت : يا رسول الله ما أشد ما عليك ، قال : « **إنا كذلك يُضَعَّفُ لنا البلاء ويضعف لنا الأجر** » قلت : يا رسول

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) صحيح رواه أحمد والترمذى.

(٥) حسن رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال: «**الأنبياء**» قلت : ثم من؟ قال: « **الصالحون** » [(١)] .

* ولابد أن يعلم المصاب أن الذى ابتلاه بمصيبته هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به ، ولا ليعذبه به ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهاله وليراه طريحًا على بابه ، لائذًا بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعًا قصص الشكوى إليه وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ [المؤمنون : ٧٦] والشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر ولا الرضاء .

* وينبغى على المريض أن يُحسن الظن بربه وأن يذكر سعة رحمته. فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل: « **أنا عند حسن ظن عبدى بى** [(٢)] ، **وأنا معه حين يذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم** » [(٣)] .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال :سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى**»[(٤)].

قال العلماء : هذا تحذير من القنوط ، وحث على الرجاء عند الخاتمة « فليجعل المريض حسن الظن بالله شعاره ودثاره وليقو نفس رجائه فإن الخوف سوط تساق به

---

(١) صحيح رواه ابن ماجه وأبو يعلى والحاكم .

(٢) أى : قادر على أن أعمل به ما ظن أنى عامله به ، وفى السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخـوف .

قال القرطبى فى « المفهم » قيل : معنى (ظن عبدى بى) ظن الإجابة عند الدعاء ، وظن القبول عند التوبة ، وظن المغفرة عند الاستغفار ، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده ، يؤيده ، قوله فى الحديث الآخر : « **ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة** »... قال: وأما ظن المغفرة مع الإصرار فذلك محض الجهل والغرة، وهو يجر إلى مذهب المرجئة «شرح السنة » ٥١/ ٢٧٣) هامش .

وقال الخطابى : إنما يحسنُ بالله ظن من حسن عمله ، فكأنه قال: أحسنوا أعمالكم يحسن بالله ظنكم ، فإن ساء عمله ساء ظنه ، وقد يكون حسن الظن أيضا من ناحية الرجاء، وتأميل العفو ، والله جواد كريم « شرح السنة » ٥١/ ٢٧٢) .

(٣) متفق عليه .   (٤) رواه مسلم .

النفس إلى الجد [(١)] وعن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت فقال له : «**كيف تجدك ؟** » قال: أرجو الله ، وأخاف ذنوبى ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف**» [(٢)] .

النهى عن تمنى الموت

إذا اشتد المرض علي العبد فلا يجوز له أن يتمنى الموت ، لحديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: « **لا يتمنين أحدُكم الموت لضرٍ نزل به، فإن كان لابد متمنيًا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى** » [(٣)] .

وعن قيس بن أبى حازم قال : دخلنا على خباب وقد اكتوى سبع كيات فى بطنه . فقال : لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به » [(٤)] .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عُمْرُهُ إلا خيرًا** » [(٥)] .

وعن أم الفضل ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ دخل عليهم ، وعباس عم رسول الله ﷺ يشتكى فتمنى عباس الموت ، فقال له رسول الله ﷺ : « **يا عم لا تتمن الموت ، فإنك إن كنت محسنًا ، فإن تؤخر تزداد إحسانًا إلى إحسانك خير لك ، وإن كنت مسيئًا فإن تؤخر فتستعتب من إساءتك خير لك ، فلا تتمن الموت**» [(٦)] .

وهذا النهى عن تمنى الموت لنزول الضرر بالعبد محمول على الضرر الدنيوى، وأما

---

(١) «الثبات عند الممات » ابن الجوزى (ص٦٧) ط دار الأندلس جدة .

(٢) حسن رواه الترمذى وابن ماجه .

(٣) رواه البخارى فى « المرضى » (٥٦٧١) باب تمنى المريض الموت . ومسلم فى «الذكر والدعاء» (٦٧٥٥) باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به .

(٤) رواه البخارى فى « المرضى » (٥٦٧٢) باب تمنى المريض الموت . ومسلم فى « الذكر والدعاء» (٦٧٥٨) باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به . واللفظ له .

(٥) رواه مسلم فى « الذكر والدعاء » (٦٧٦٠) باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به .

(٦) صحيح . رواه الحاكم (١/٣٩٩) وصححه ووافقه الذهبى .

تمنى الموت لخوف الفتنة في الدين ، وأن ينقطع الإنسان بالمعاصى عن الله ـ عز وجل ـ فلا بأس به .

قال النووى : قوله ﷺ : « **لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيًا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى** » فيه التصريح بكراهة تمنى الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة ، أو محنة من عدو ، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضررًا فى دينه ، أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثانى خلائق من السلف عند خوف الفتنة فى أديانهم، وفيه أنه: إن خالف ولم يصبر على حاله فى بلواه بالمرض ونحوه ، فليقل : «**اللهم أحينى إن كانت الحياة خيرًا لى إلخ والأفضل الصبر ، والسكون للقضاء**» [١] .

وقال الحافظ ابن حجر : وقد فعل ذلك جماعة من الصحابة (أى تمنى الموت عند خوف الفتنة فى الدين) ففى الموطأ عن عمر أنه قال : «اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط » . . . وأخرج أحمد وغيره من طريق عبس ويقال عابس الغفارى أنه قال : « يا طاعون خذنى فقال له عليم الكندى لم تقول هذا ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ : « **لا يتمنين أحدكم الموت** ؟ فقال: إنى سمعته يقول : « **بادروا بالموت ستًا إمرة السفهاء ، وكثرة الشُرط، وبيع الحكم** » الحديث . . . وأصرح منه فى ذلك حديث معاذ الذى أخرجه أبو داود وصححه الحاكم فى القول فى دبر كل صلاة ، وفيه : «**وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون**»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : « اشتكى [٣] سعد بن عبادة شكوى له ، فأتاه النبى ﷺ

---

(١) شرح النووى على مسلم (١٧/ ١٠) .

(٢) «فتح البارى» (١٠/١٣٣) .

(٣) اشتكى : أى ضعف .

يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود ﷺ فلمّا دخل عليه فوجده فى غاشية [1] أهله فقال : « **قد قضى** » قالوا : لا يا رسول الله . فبكى النبى ﷺ . فلما رأى القوم بكاء النبى ﷺ بكوا فقال : **ألا تسمعون** ؟ « **إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم . وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه** » [2] .

---

(١) أى يغشاه كرب الموت. (٢) متفق عليه .

الاحتضار

إذا أحسَّ الإنسان بالموت ، فينبغى أن يلهج بلا إله إلا الله وعلى من حوله أن يلقنوه إياها إن غفل عنها ، لقول النبى ﷺ : « **لقنوا موتاكم لا إله إلا الله** » [(١)] وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** » [(٢)] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « **احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله فإنهم يرون ما لا ترون** » [(٣)] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، فإنه من كان آخر كلمته لا إله إلا الله عند الموت، دخل الجنة يومًا من الدهر وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه** » [(٤)] .

ومعنى قول النبى ﷺ : « **لقنوا موتاكم** » أى من حضره الموت.

قال النووى :أجمع العلماء على هذا التلقين، وكرهوا الإكثار عليه، والموالاة لئلا يضجر بضيق حاله وشدة كربه . فيكره ذلك بقلبه ، ويتكلم بما لا يليق ، قالوا : وإذا قاله مرة لا يكرر عليه، إلا أن يتكلم بعده بكلام آخر، فيعاد التعريض به ليكون آخر كلامه، ويتضمن الحديث الحضور عند المحتضر لتذكيره وتأنيسه وإغماض عينيه ، والقيام بحقوقه ، وهذا مجمع عليه [(٥)] ويُسن للحاضرين أن يتعاهدوا بلَّ حلق المحتضر بالماء أو شراب ، وأن يتعاهدوا تندية شفتيه بقطنة لأنه ربما ينشف حلقه من شدة ما نزل به فيعجز عن الكلام وتعاهده بذلك يطفئ ما نزل به من الشدة ويسهل عليه النطق

---

(١) رواه مسلم .

(٢) حسن . رواه أحمد (٥ / ٢٣٣) وأبو داود (٣١١٦) .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٤) صحيح . رواه ابن حبان (٣٠٠٤ ـ إحسان) .

(٥) « شرح النووى على صحيح مسلم » (٦ / ٤٥٨).

بالشهادتين [١] .

وينبغى على من حول المحتضر أن لا يقولوا إلا خيرًا ، لأن الملائكة يؤمنون على ما يقولون .

فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إذا حضرتم المريض أو الميت ، فقولوا خيراً ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»[٢] .

قال النووى : فيه الندب إلى قول الخير ، حينئذ من الدعاء والاستغفار له وطلب اللطف به ، والتخفيف عنه ، ونحوه . وفيه حضور الملائكة حينئذ وتأمينهم [٣] .

ويستحب توجيه المحتضر إلى القبلة ، وهذا الأمر لم يصح فيه حديث عن النبى ﷺ ، ولكن وردت بعض الآثار الصحيحة عن السلف أنهم كانوا يفعلون ذلك .

وقد ذكر العلماء صفتين في كيفية استقبال القبلة :

الأولى : أن يكون مستلقيًا على قفاه وأخمصاه إلى القبلة ويرفع رأسه قليلاً ليصير وجهه إلى القبلة .

الثانية : أن يوجه على جنبه الأيمن مستقبل القبلة ، وقد رجح الشوكانى هذه الصفة .وإن كان فى توجيه المحتضر إلى القبلة إحداث ألم له أو ضيق فلا بأس من تركه على حاله فى أى جهة .

تنبيه : بعض الناس يقرأ القرآن عند المحتضر ، ولاسيما « **سورة يس**» ويستدلون لذلك بأحاديث منها « **اقرأوا يس على موتاكم** » .

وهذا الحديث ضعيف ، ضعفه ابن القطان ، وقال الدارقطنى : هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن ولا يصح فى الباب حديث.

واستدلوا أيضًا بحديث « **ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه** » وهو

---

(١) انظر « المغنى » لابن قدامة (٢ / ٤٥٠) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) « شرح النووى على صحيح مسلم » (٦/ ٤٦١).

أيضًا حديث ضعيف ، رواه الديلمى فى « الفردوس » وفى سنده مرواه بن سالم وهو ضعيف .

وقد نص المالكية على كراهة قراءة القرآن عند الميت فقد جاء في «الشرح الصغير » (١/ ٢٢٠) : يكره قراءة شيء من القرآن الكريم عند الموت لأنه ليس من عمل السلف وإن كان شأنهم الدعاء بالمغفرة والرحمة والاتعاظ .

ما يفعله أهل الميت عقب الوفاة

إذا تيقن أهل الميت من موته ، ويكون ذلك بتيقن مغادرة الروح للجسد مغادرة تامة ، فإنه يجب على الحاضرين موته عدة أمور :

أولا: أن يغمضوا عينيه ويدعوا له ، لحديث أم سلمة ﵂ قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بَصَرُهُ [١] ، ثم قال : « **إن الروح إذا قُبض تبعه البصر** » فضج ناسٌ من أهله ، فقال : « **لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون** » ثم قال : «**اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى عقبه فى الغابرين** [٢] **واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له فى قبره ونوِّرْ له فيه**» [٣] .

قال النووى : قولها (فأغضمه) دليل على استحباب تغميض الميت، وأجمع المسلمون على ذلك . قالوا : والحكمة فيه أن لا يقبح بمنظره لو ترك إغماضه [٤] .

وينبغى تغطية الميت فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ حين تُوفى سُجى ببردة [٥] .

ويجوز تقبيل وجه الميت ، فعن عائشة ﵂ أن أبا بكر دخل فبصر برسول الله ﷺ وهو مسجى ببردة فكشف عن وجهه وأكب عليه فقبله[٦] .

---

(١) يقال : شق بصر الميت ، وشق الميت بصره . ومعناه : شخص وصار ينظر إلى الشيء لا يرتد إليه طرفه.

(٢) الغابرين : أى الباقين .

(٣) رواه مسلم .

(٤) « شرح النووى على صحيح مسلم » (٦/ ٤٦٢).

(٥) متفق عليه .

(٦) رواه البخارى .

والحكمة من تغطية الميت صيانته من الانشكاف وستر عورته المتغيرة عن الأعين.

ثانيا : ينبغى على أقارب الميت أن يصبروا ويرضوا بقدر الله تعالى ، ويسلموا لحكمه ، وأن يسترجعوا .

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة] .

وقال ﷺ : « **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها** » [(١)] .

وعن أسامة بن زيد قال : كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيًا لها فى الموت فقال الرسول : « **ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب** » [(٢)] .

وقال ﷺ : « **الصبر عند الصدمة الأولى** » [(٣)] .

وقال أيضًا ﷺ : « **إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر واحتسب بثواب دون الجنة** » [(٤)] .

البكاء على الميت

يجوز البكاء على الميت بدمع العين ، ولكن من غير نوح ولا صراخ، وقد جاء فى ذلك أحاديث .

١ ـ عن أنس رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف ـ وكان ظئرًا [(٢)] لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال له عبد الرحمن

---

(١) رواه مسلم . (٢) متفق عليه . (٣) متفق عليه.
(٤) حسن . رواه النسائى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال: « **ياابن عوف إنها رحمة** » ثم أتبعها بأخرى فقال : «**إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون** » [١] .

قال ابن بطال وغيره : هذا الحديث يفسر البكاء المباح والحزن الجائز وهو ما كان بدمع العين ورقة القلب من غير سخط لأمر الله [٢] .

٢ ـ عن جابر ﷺ قال: أصيب أبى يوم أحد فجعلت أبكى فجعلوا ينهوننى ورسول الله ﷺ لا ينهانى فجعلت عمتى فاطمة تبكى، فقال النبى ﷺ: « **تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه**»[٣] .

٣ ـ وعن عائشة ﷺ أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، قالت : فوالذى نفسى بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى [٤] .

٤ ـ وعن أسامة بن زيد ﷺ قال : كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيًا لها فى الموت ، فقال رسول الله ﷺ: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى فمُرْها فلتصبر ولتحتسب** » فعاد الرسول ، فقال: إنها أقسمت لتأتينها قال: فقام النبى ﷺ وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل قال: فانطلقت معهم فرفع إليه الصبى ونفسه تقعقع كأنها فى شنة ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال: « **هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** » [٦] .

---

(١) أى زوج مرضعة إبراهيم عليه السلام .

(٢) متفق عليه .

(٣) « فتح البارى » (٣ / ٢٠٨) .

(٤) متفق عليه .

(٥) حسن . رواه أحمد (٦/ ١٤١ ـ ١٤٢) وابن حبان (٧٠٢٧ ـ إحسان) وابن أبى شيبة (١٤/ ٤٠٨) وابن سعد (٣/ ٤٢١).

(٦) متفق عليه .

٥ ـ وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء من بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهن ، فقال: لكن حمزة لا بواكى له ، فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده ، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال : « **يا ويحهن أنتن هاهنا يبكين حتى الآن مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم** » [١] .

٦ ـ وعن جابر بن عتيك ﷺ أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله ابن ثابت فوجده قد غلب فصاح به فلم يجبه فاسترجع وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع ، فصاح النسوة وبكين فجعل ابن عتيك يسكتهن ، فقال رسول الله ﷺ : « **دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية** » قالوا: وما الوجوب يا رسول الله ؟ قال : « **الموت**» [٢] .

وقوله ﷺ : « **ولا يبكين على هالك بعد اليوم** » وقوله أيضًا فى حديث جابر بن عتيك : « **فإذا وجبت فلا تبكين باكية** » ظاهرة المنع من البكاء ، وذلك يعارض ما فى الأحاديث الأخرى من الإذن بالبكاء . ويجمع بين الأحاديث بحمل النهى عن البكاء الذى يفضى إلى النوح والصراخ وغير ذلك ، والإذن به على مجرد البكاء الذى هو دمع العين ولا يمكن دفعه من الصوت [٣] .

ويؤيد هذا الجمع ما رواه الترمذى عن جابر أن النبى ﷺ أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق به إلى ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه فأخذه النبى ﷺ فوضعه في حجره فبكى فقال له عبد الرحمن : أتبكى أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ فقال: « **لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان** » [٤] فالبكاء والحزن على الميت على وجه الرحمة والرقة حسن ، ولا ينافى الرضا والصبر .

« وليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم فى حال مصيبته وبكائه بشىء يحبط به أجره ،

---

(١) حسن . رواه أحمد (٢/ ٩٢) وابن ماجه (١٥٩١).
(٢) صحيح . رواه أبو داود (٣١١١) والنسائى (٤/ ١٣) .
(٣) انظر « نيل الأوطار (٤/ ١٣٥).
(٤) حسن . رواه الترمذى (١٠٠٥).

ويُسْخط به ربه ، مما يشبه التظلم ، فإن الله تعالى عدلٌ لا يجور ، وعالم لا يضل ولا يجهل وحكيمٌ ، أفعاله كلها حكم ومصالح ، ما يفعل شيئًا إلا لحكمة، فإنه سبحانه له ما أعطى وله ما أخذ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو الفعال لما يريد ، القادر علي ما يشاء، له الخلق والأمر . بل إنما يتكلم بكلام يُرضى به ربه، ويُكثر به أجره، ويرفع الله به قدره [١] .

النهى عن النياحة [٢] على الميت وشق الجيوب وخمش الوجوه وحلق الشعر ونحو ذلك

نهى النبى ﷺ عن هذه الأمـور ، وبين ﷺ ضررها على الحى والميت.

أولا : ضرر النياحة على الأحياء :

١ ـ عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال: « **أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم** [٣] **، والنياحة ، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب** » [٤].

٢ ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت** » [٥] وقد اختلف فى توجيه إطلاق الكفر على من فعل هاتين الخصلتين .

قـال النـووى : فيه أقوال أصحها : أن معناه هما من أعمال الكفر وأخلاق

---

(١) « تسلية أهل المصاب » المنبجى الحلبى (ص٥٨).

(٢) النياحة : مأخوذة من النوح ، وهو رفع الصوت بالبكاء والعويل .

(٣) الاستسقاء بالنجوم : هو قول القائل : مطرنا بنوء كذا أو سؤال المطر من الأنواء ، فإن كان ذلك على جهة اعتقاد أنها المؤثرة فى نزول المطر فهو كفر ، وقد ورد فى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « يقول الله : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر مؤمن بالكوكب ».

(٤) رواه مسلم . (٥) رواه مسلم .

الجاهلية [١] أى أن الذى يفعل ذلك يكون متشبها بالكفار .

٣ ـ عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : « **ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** » [٢] .

وقوله ﷺ : « **ليس منا** » أى : ليس على سنتنا وطريقتنا وليس المراد أنه كافر خارج عن الملة . وهو لفظ يدل على المبالغة فى الردع عن الوقوع فى مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته : لست منك ولست منى أى ما أنت على طريقتى .

وقوله ﷺ : « **وشق الجيوب** » الجيب هو فتحة الصدر والمراد النهى عن شق الملابس لأنه من علامات السخط .

وقوله ﷺ : « **ودعا بدعوى الجاهلية** » المقصود به النياحة .

٤ ـ عن أبى بردة قال : وجع أبو موسى وجعًا فغشى عليه فصاحت امرأة من أهله ، فلما أفاق قال: أنا برىء مما برئ منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله ﷺ **برىء من الصالقة والحالقة والشاقة** [٣] .

والصالقة : هى التى ترفع صوتها بالبكاء ، وتُنطق بالسين بدل الصاد ومنه قوله تعالى : ﴿ **سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾ [الأحزاب:١٩] **والحالقة** : هى التى تحلق شعرها عند المصيبة ، **الشاقة** : هى التى تشق ثيابها.

وهذه الأمور حرمها رسول الله ﷺ وتبرأ من فاعلها لأنها مشعرة بعدم الرضا بالقضاء .

٥ ـ عن امرأة من المبايعات قالت : « كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا أن لا نعصيه فيه ، وأن لا نخمش وجهًا، ولا ندعو ويلاً ، ولا

---

(١) « نيل الأوطار » (١٤١/٤) .

(٢ ، ٣) متفق عليه .

نشق جيبًا ، ولا ننشر شعرًا » [(١)] .

ثانيا : ضرر النياحة على الميت :

أخبر النبى ﷺ أن الميت يعذب فى قبره وكذا يوم القيامة بنياحة أهله عليه ، وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة ، منها :

١ ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه** » [(٢)] .

٢ ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة** » [(٣)] .

٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه**»[(٤)].

٤ ـ عن أنس : أن عمر بن الخطاب لما طعن ، عولتْ عليه حفصة فقال : يا حفصة أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **المعول عليه يعذب**»؟ وعوّل عليه صهيب ، فقال عمر : يا صهيب أما علمت أن المعَوَّل عليه يعذب [(٥)] .

وقد يقول قائل : ما ذنب الميت أن يعذب بأمر لم يفعله هو وإنما فعله غيره ، والله عز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] . **والجواب** : أن هذه الأحاديث محمولة على من أوصى بالنوح عليه، أو لم يوص بعدم فعله مع علمه بأن الناس يفعلونه عادة . ولهذا قال عبد الله بن المبارك : إذا كان ينهاهم فى حياته ففعلوا شيئًا من ذلك بعد وفاته لم يكن عليه شىء .

---

(١) صحيح . رواه أبو داود والبيهقى .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم .

جواز ندب الميت بما هو فيه من غير نياحة

يجوز ندب الميت وذكره بما هو متصف به ، ولكن بغير نياحة ولا عويل ولا الكذب فى ذكر صفاته ، ودليل ذلك ما يلى :

١ ـ عن أنس ﷺ قال : لما ثَقُلَ النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة : واكرب أبتاه ، فقال ﷺ : « **ليس على أبيك كرب بعد اليوم ،** فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربًا دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلما دُفِنَ قالت فاطمة: أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب » [١] .

٢ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن أبا بكر دخل على النبى : ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه [٢] .

نعى الميت

نعى الميت منه ما هو جائز ، ومنه ما هو ممنوع ، أما الجائز منه فهو ما كان بقصد إعلام أهل الميت وقرابته وأصدقائه وأهل الصلاح بموته ليكون لهم أجر المشاركة فى تجهيزه وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه ، وقد نعى النبى ﷺ للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلى فصلى بهم عليه صلاة الغائب ، ونعى لهم أيضًا زيدًا ، وجعفر ، وابن رواحة قبل أن يأتيهم خبر قتلهم فى غزوة مؤتة .

ويستحب للمخبر أن يطلب من الناس أن يستغفروا للميت الذى نعاه لهم لقول النبى ﷺ لأصحابه لما نعى لهم النجاشى : « **إن أخاكم النجاشى قد مات فاستغفروا له**»[٣] وكذلك فعل رسول الله ﷺ لما نعى لأصحابه استشهاد زيد بن حارثة ، وجعفر ، وعبد الله بن رواحة فكان يقول بعد نعى كل منهم : « **استغفروا له** » [٤] .

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه البخارى .

(٣، ٤) حسن . رواه أحمد .

وأما النعى الممنوع : فهو محمول على النعى الذى كانت الجاهلية تفعله من الشهرة والفخر والخيلاء ، وما يصحب ذلك من ضجيج ونياحة، وكذا إذا كان النعى على رؤوس المآذن ، وتعليق النعوات فى الشوارع ، أو نشرها فى الصحف للمباهاة والفـخر.

سداد الدين عن الميت

ينبغى على أقارب الميت أن يسارعوا إلى قضاء دينه من تركته، وإن لم يترك مالاً فليتطوع بعض أقاربه بسداد الدين عنه، فقد أخبر النبى ﷺ أن العبد يحبس بدينه عن الجنة [١] وقد كان النبى ﷺ لا يصلى على المدين حتى يُقضى عنه دينه أو يتعهد أحدٌ بسداد دينه [٢] .

وإذا لم يوجد من يقوم بالسداد عن الميت ، ففى هذه الحالة يجب على الدولة ـ فى النظام الإسلامى ـ أن تقوم بقضاء الدين لقول النبى ﷺ: « **من ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ضياعا** [٣] **أو دينًا فعلى وإلى وأنا ولى المؤمنين** » [٤] وقال ﷺ : « **من حمل من أمتى دينًا ، ثم جَهَد فى قضائه فمات ولم يقضه فأنا وليه** » [٥] .

الإحداد [٦] على الميت

لا يجوز للمرأة أن تحد على قريبها الميت أكثر من ثلاثة أيام ما لم يمنعها زوجها، ويجب أن تحد على زوجها أربعة أشهر وعشرًا لقوله ﷺ : « **لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرًا . ولا تلبس ثوبًا مصبوغًا ،**

---

(١) صحيح . رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، والحاكم ، والبيهقى.

(٢) حسن . رواه أحمد والحاكم والبيهقى .

(٣) أى عيالاً : قال ابن الأثير : وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعًا ، فسمى العيال بالمصدر كما تقول : من مات وترك فقرًا ، أي فقراء .

(٤) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه .

(٥) صحيح رواه أحمد عن عائشة رضي الله عنها .

(٦) الإحداد والحداد : مشتق من الحد وهو المنع، لأن المرأة تمنع من الطيب والزينة في فترة حدادها.

إلا ثوب عصب (١) **ولا تكتحل ولا تمس طيبًا ، ولا تختضب ، ولا تمتشط إلا إذا طهرت تمس نُبْذةً من قسط** (٢) **أو أظفار** » (٣) .

والإحداد : ترك ما تتزين به المرأة من الحلى والكحل والحرير والطيب والخضاب ، وإنما وجب على الزوجة ذلك مدة العدة من أجل الوفاء للزوج ومراعاة لحقه .

وعن أم سلمة زوج النبى ﷺ أنه قال : « **المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب ، ولا الممشقة ولا الحلى ولا تكتحل ولا تختضب** » (٤) .

وهذا الحكم يشمل المتوفى عنها زوجها سواءٌ كان دخل بها أو لم يدخل ، وأما المرأة الحامل فتنتهي عدتها وحدادها بوضع الحمل ويلزمها الإحداد طوال مدة الحمل سواء قصرت المدة أم طالت .

وقال بعض العلماء : لا يلزمها الإحداد بعد أربعة أشهر وعشرة أيام وإن لم تضع الحمل .

وأما الحكمة : من جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرًا: فقد قال العلماء : لأن الأربعة أشهر فيها ينفخ الروح فى الولد إن كان ، والعشر احتياطًا ، وفى هذه المدة يتحرك الولد فى البطن ، فيحصل بهذه المدة براءة الرحم حيث يحتاج إليه ، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلى ذلك.

والمرأة المعتدة تمكث فى بيتها ولا تخرج إلا لأمر لابد منه ، فعن الفُريعة بنت مالك أخت أبى سعيد الخدرى أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خُدرة ، فإن زوجها خرج فى طلب أعبد له أبقوا ، حتى إذا كانوا بطرف القدوم

---

(١) ثوب العصب : هو ما صبغ غزله قبل نسجه ، والعصب : نبت ينبت باليمن تصبغ به الثياب ، وقد رخص النبى ﷺ فى ثوب العصب لأنه يكون بعيدًا عن الزينة .

(٢) قال النووى : القسط ، والأظفار نوعان معروفان من البخور وليسا من مقصود الطيب ، رخص فيه للمغتسلة من الحيض لإزالة الرائحة الكريهة تتبع به أثر الدم لا للتطيب .

(٣) متفق عليه .

(٤) صحيح . رواه أبو داود (٢٣٠٤) والنسائى (٦/٢٠٣، ٢٠٤) .

لحقهم فقتلوه ، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلى ، فإنه لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة ، فقال رسول الله ﷺ : « **نعم** » . فخرجتُ حتى إذا كنتُ فى الحجرة أو فى المسجد دعانى فقال : « **كيف قالت** ؟ فرددت عليه القصة التى ذكرتُ من شأن زوجى ، قالت : فقال : «**أمكثى فى بيتك حتي يبلغ الكتاب أجله** » قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا ، قالت : فلما كان عثمان أرسل إلى فسألنى عن ذلك ، فأخبرته ، فقضى به واتبعه[1] .

وأما لبس المرأة للثياب السوداء فى الحداد ، فقد اختلف فيه أهل العلم، فأجازه الأحناف للمرأة الحادة على زوجها ومنعوا من لبسه فى الحداد على غير الزوج .

وقالت المالكية : إن المحدة يجوز لها أن تلبس الأسود إلا إذا كانت ناصعة البياض ، أو كان الأسود زينة قومها .

وقال القليوبى من الشافعية : إذا كان السواد عامة قومها فى التزين به حرم لبسه ، ونقل النووى عن الماوردى أنه أورد فى « الحاوى » وجهًا يلزمها السواد فى الحداد [2] . أما ابن حزم فقد منع من لبس الأسود لأنه ثوب مصبوغ بالسواد وقد نهى النبى ﷺ الحادة عن لبس الثياب المصبوغة.

وأما المرأة الحادة على غير زوجها كالوالدة أو الولد أو أحد أقربائها فيجوز لها أن تتطيب وتتزين فى فترة حدادها ، فعن أم حبيبة ابنة أبى سفيان لما جاءها نعى أبيها دعت بطيب فمسحت ذراعيها وقالت : ما لى بالطيب من حاجة ، لولا أنى سمعت النبى يقول : « لا يحل لامرأة تؤمن الله واليوم الآ[illegible] تحد على ميت فوق ثلاث ، إلا

---

(١) صحيح . رواه مال[illegible] فى « الموطا » [illegible]
مسنده (٢/ ٥٣ ـ ٥٤) [illegible]
(٢/ ١٦٨) والنسائى (٦/ ١٩[illegible] ـ ٢٠٠) وا[illegible] (٧[illegible]) وابن حبان (١٩٢[illegible]
إحسان) والحاكم (٢/ ٨[illegible]) والبيهقى (٧/ [illegible]) والطيالسى (١٦٦٤) والبغوى في « شرح الـ[illegible]
(٢٣٨٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٢) انظر « فقه الجنائز » للدكتور أحمد محمد كريمة (ص٥٣) .

على زوجها أربعة أشهر وعشرًا » [١] .

وكذلك فعلت زينب بنت جحش حين توفى أخوها » [٢] .

قال النووى : وفى هذا الذى فعلته أم حبيبة وزينب مع الحديث المذكور دلالة لجواز الإحداد على غير الزوج ثلاثة أيام فما دونها [٣].

وعن محمد بن سيرين قال : « توفى ابنٌ لأم عطية ـ رضى الله عنها ـ ، فلما كان اليوم الثالث دعت صفرة فتمسحت به وقالت : نُهينا أن نُحدَّ أكثر من ثلاثٍ إلا زوج»[٤] .

قال الشيخ الألبانى : ولكنها إذا لم تحد على غير زوجها ، إرضاء للزوج وقضاء لوطره منها ، فهو أفضل لها ، ويرجى لهما من وراء ذلك خير كثير كما وقع لأم سليم وزوجها أبى طلحة الأنصارى ـ رضى الله عنهما ـ ، ولا بأس من أن أسوق هنا قصتهما فى ذلك على طولها لما فيها من الفوائد والعظات والعبرة ، فقال أنس ـ رضى الله عنه ـ:

قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم ـ وهى أم أنس : إن هذا الرجل ـ يعنى النبى ﷺ يحرم الخمر ـ فانطلق حتى أتى الشام فهلك هناك فجاء أبو طلحة ، فخطب أم سليم ، فكلمها فى ذلك ، فقالت : يا أبا طلحة! ما مثلك يرد ، ولكنك امرؤ كافر ، وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لى أن أتزوجك ! فقال : ما ذاك دهرك ، قالت : وما دهرى ؟، قال : الصفراء والبيضاء ! قالت : فإنى لا أريد صفراء ولا بيضاء ، أريد منك الإسلام [فإن تسلم فذاك مهرى ، لا أسألك غيره] ، قال : فمن لى بذلك ؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ ، فانطلق أبو طلحة يريد النبى ﷺ ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه، فلما رآه قال : جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه ، فأخبر رسول الله

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .

(٣) « شرح النووى على صحيح مسلم » (١٠/٣٥٢) ط دار المعرفة ـ بيروت .

(٤) رواه البخارى فى « الجنائز » (١٢٧٩) باب إحداد المرأة على غير زوجها .

ﷺ بما قالت أم سليم ، فتزوجها على ذلك ، قال ثابت (وهو البنانى أحد رواة القصة عن أنس) فما بلغنا أن مهرًا كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهرًا ، فتزوجها وكانت امرأة مليحة العينين ، فيها صغر ، فكانت معه حتى ولد له بُنى ، وكان يحبه أبو طلحة حبًا شديدًا . ومرض الصَّبىُّ [مرضًا شديدًا] وتواضع أبو طلحة لمرضه أو تضعضع له.

فكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ ، ويأتى النبى ﷺ فيصلى معه ويكون معه إلى قريب من نصف النهار ويجئ يقيل ويأكل ، فإذا صلى الظهر تهيأ وذهب ، فلم يجئ إلى صلاة العتمة ، فانطلق أبو طلحة عشية إلى النبى ﷺ (وفى رواية : إلى المسجد) ومات الصبى فقالت أم سليم : لا ينعين إلى أبى طلحة أحد ابنه حتي أكون أنا الذى أنعاه له، فهيأت الصبى (فسجت عليه) ووضعته (فى جانب البيت) ، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها (ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه) فقال : كيف ابنى؟

فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة [وأرجو أن يكون قد استراح !] فأتته بعشائه (فقربته إليهم فتعشوا ، وخرج القوم) ، (قال فقام إلى فراشه فوضع رأسه) ، ثم قامت فتطيبت ، (وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك) ، (ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش ، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل إلى أهله) ، (فلما كان آخر الليل) قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا قومًا عارية لهم، فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم ؟ فقال : لا ، قالت فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية ، ثم قبضه إليه ، فاحتسب واصبر ! فغضب ثم قال: تركتنى حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إلى ابنى ! (فاسترجع، وحمد الله)، (فلما أصبح اغتسل) ، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ (فصلى معه) فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ بارك الله لكما فى غابر ليلتكما ، فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سليم تسافر مع النبى ﷺ ، تخرج إذا خرج ، وتدخل معه إذا دخل ، وقال رسول الله ﷺ إذا ولدت فأتونى بالصبى ، (قال: فكان رسول الله ﷺ فى سفره وهى معه ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا ، فدنوا من المدينة ،

فضربها المخاض ، واحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ ، فقال أبو طلحة: يارب إنك لتعلم أنه يعجبنى أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى ، قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ما أجد الذى كنت أجد فانطلقا قال : وضربها المخاض حين قدموا)، فولدت غلامًا ، وقالت لابنها أنس : (يا أنس ! لا يطعم شيئًا حتى تغدو به إلى رسول الله ﷺ ، (وبعثت معه بتمرات) ، قال : فبات يبكى ، وبت مجنحًا[1] عليه ، أكالئه حتى أصبحت ، فغدوت إلى رسول الله ﷺ) ، (وعليه بردة) ، وهو يسم إبلا أو غنمًا (قدمت عليه) ، فلما نظر إليه، قال لأنس : أولدت بنت ملحان ؟ قال : نعم ، (فقال: رويدك أفرغ لك) ، قال : فألقى ما فى يده ، فتناول الصبى وقال: (أمعه شىء؟ قالوا: نعم ، تمرات) ، فأخذ النبى ﷺ (بعض) التمر (فمضغهن ، ثم جمع بزاقه) ، (ثم فغر فاه ، وأوجره إياه)، فجعل يحنك الصبى ، وجعل الصبى يَتَلَمَظ : (يمص بعض حلاوة التمر وريق رسول الله ﷺ، فكان أول من فتح أمعاء ذلك الصبى ريق رسول الله ﷺ) فقال: انظروا إلى حب الأنصار التمر ، (قال : قلت: يا رسول الله سَمِّه ، قال) ، (فمسح وجهه) وسماه :عبد الله ، (فما كان من الأنصار شاب أفضل منه) ، (قال : فخرج منه رجل [2] كثير ، واستشهد عبد الله بفارس) » .

أخرجه الطيالسى (رقم ٢٠٥٦) والسياق له ، ومن طريقه البيهقى (٤/ ٦٥ ـ ٦٦) ـ وابن حبان (٧٥٢) وأحمد (٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٨١، ١٩٦، ٢٨٧، ٢٩٠) والزيادات كلها له ، ورواه البخارى (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣) ومسلم (٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥) مختصرًا مقتصرًا على قصة وفاة الصبى وروى النسائى (٢/ ٨٧) قسمًا من أوله ، والزيادة الأولى له ، والسادسة والثامنة والخامسة عشر والسادسة عشر للبخارى ، والتاسعة عشر والثانية والعشرون لمسلم ، وسائرها لأحمد كما سبق.

---

(١) أى مائلاً .

(٢) جمع راجل ، وهو ضد الفارس .

وقد عنيت عناية خاصة بجمع روايات هذه القصة وألفاظها ، لما فيها من روعة وجلالة ، وليأخذ القارئ عنها فكرة جامعة صادقة ، وبذلك تتم العبرة والفائدة [(١)] .

علامات حسن الخاتمة

قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ إن الشارع الحكيم قد جعل علامات بينات يستدل بها على حسن الخاتمة ، كتب الله لنا بفضله ومنه ـ فأيما امرئ مات بإحداها كانت بشارة له ، ويالها من بشارة له .

الأولى :

نطقه بالشهادة عند الموت وفيه أحاديث منها قوله ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

الثانية :

الموت برشح الجبين ، لحديث بريدة بن الخصيب رضي الله عنه « أنه كان بخراسان فعاد أخًا له وهو مريض ، فوجده بالموت ، وإذا هو بعرق جبينه، فقال : الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : «موت المؤمن بعرق الجبين » .

الثالثة :

الموت ليلة الجمعة أو نهارها ، لقوله ﷺ : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة ، إلا وقاه الله فتنة القبر » .

الرابعة :

الاستشهاد فى ساحة القتال . قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ**

---

(١) « أحكام الجنائز » (ص [illegible] ـ ٢٥) .

وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ [آل عمران: ١٦٩ _ ١٧١] .

ولقوله ﷺ « للشهيد عند الله ست خصال ؛ يغفر له فى أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ، ويحلى حلية الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه » .

الخامسة :

الموت غازيا فى سبيل الله لقوله ﷺ : « ما تعدون الشهيد فيكم»؟

قالوا: يا رسول الله من قتل فى سبيل الله فهو شهيد .

قال : « إن شهداء أمتى إذا لقليل ».

قالوا : فمن هم يا رسول الله ؟

قال: « من قتل فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون فهو شهيد ، ومن مات فى البطن [١] فهو شهيد ، والغريق شهيد» .

السادسة :

الموت بداء الطاعون لقوله ﷺ فى الحديث المتقدم ولقوله عليه الصلاة والسلام « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

السابعة :

الموت بداء البطن لقوله ﷺ فى الحديث المتقدم .

الثامنة والتاسعة :

الموت بالغرق والهدم .

---

(١) أى بداء البطن وهو الاستسقاء وانتفاخ البطن . وقيل : هو الإسهال ، وقيل : الذى يشتكى بطنه.

لقوله ﷺ : « الشهداء خمسة المطعون ، والمبطون ، والغرق [١] ، وصاحب الهدم، والشهيد فى سبيل الله » .

العاشرة :

موت المرأة فى نفاسها بسبب ولدها .

عن عبد الله بن الصامت :

أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة قال : فما تحوز [٢] له عن فراشه ، فقال : أتدرى مَنْ شهداء أمتى ؟ قالوا : قتل المسلم شهادة، قال: « إن شهداء أمتى إذا لقليل ، قتل المسلم شهادة ، والطاعون شهادة ، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء [٣] شهادة [يجرها ولدها بسَرَره [٤] إلى الجنة] » .

الحادية عشرة والثانية عشرة :

الموت بالحرق وذات الجنب [٥] وفيه أحاديث أشهرها :

عن جابر بن عتيك عن النبى ﷺ :

الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله ؛ المطعون شهيد ، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد ، والمبطون شهيد والحرق شهيد ، والذى يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموت بجمع شهيده [٦] » .

---

(١) ولو بركوب البحر للتجارة إذا لم يكن عاصيا ، وغلب على الظن السلامة ، كما قال= =شيخ الإسلام ابن تيمية فى « مجموع الفتاوى » (٢٤/٢٩٣).

(٢) بالحاء المهملة والواو المشددة ، أى : تنحى.

(٣) هى التى تموت ، وفى بطنها ولد ، انظر كلام « النهاية » فى التعليق الآتى قريبا.

(٤) السرة ما يبقى بعد القطع مما تقطعه القابلة ، والسرر ما تقطعه ، وهو السر بالضم أيضا.

(٥) هى ورم حاد يعرض فى الغشاء المستبطن للأضلاع .

(٦) فى النهاية : « أى تموت وفى بطنها ولد ، وقيل هى التى تموت بكرًا ، والجمع بالضم بمعنى المجموع ، كذخر بمعنى المذخور ، وكسر الكسائى الجيم ، والمعنى أنها ماتت مع شىء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة » .

قلت : والمراد هنا الحمل قطعًا بدليل الحديث المتقدم فى «العاشرة » بلفظ «يقتلها ولدها جمعاء».

الثالثة عشرة :

الموت بداء السل لقوله ﷺ : « القتل فى سبيل الله شهادة ، والنفساء شهادة ، والحرق [1] شهادة ، والعرق شهادة ، والسل شهادة ، والبطن شهادة » .

الرابعة عشرة :

الموت فى سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه لقوله ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد » .

الخامسة عشرة ، والسادسة عشر :

الموت فى سبيل الدفاع عن الأهل والنفس لقوله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد » .

السابعة عشرة :

الموت مرابطًا في سبيل الله .

لقوله ﷺ : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » .

الثامنة عشرة :

الموت على عمل صالح . لقوله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ومن صام يومًا ابتغاء وجه الله ختم له بها ، دخل الجنة ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة » .

(١) بفتحتين ، وكذا (الغرق)، كما فى «حاشية المسند» للسندى (ق١٠٣/١) مكتبة شيخ الإسلام فى المدينة المنورة .

التاسعة عشرة :

من قتله الإمام الجائر لأنه قام إليه فنصحه لقوله ﷺ سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »[١] أخرجه الحاكم وصححه والخطيب [٢] .

٢ ـ ومن أسباب حسن الخاتمة الاستقامة :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وقال النبي ﷺ : « **قل آمنت بالله ثم استقم** » [٣] .

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ : والاستقامه هي سلوك الصراط المستقيم ، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة ، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك ، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها ، وفي قوله عز وجل : ﴿ **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** ﴾ [فصلت : ٦] ، إشارة إلى أنه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كقول النبي ﷺ لمعاذ : « **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها** » وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يطيقوا الاستقامة حق الاستقامة كما خرجه الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: « **استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** » [٤] .
فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله

---

(١)انظر تحقيق الكلام عليه وبيان صحته في « الصحيحة (٣٧٤) .

(٢) « تلخيص أحكام الجنائز » (ص ٢١ ـ ٢٤) .

(٣) رواه الترمذي (٨ / ١٥٥ عارضة) ، وأحمد (٥ /٥٨) وقال الترمذي : هذا حسن صحيح ، وحسنه الألباني (١٦١) صحيح الترمذي .

(٤) رواه مالك في الموطأ (١/ ٣٤) الطهارة بلاغا ، ورواه ابن ماجه (٢٧٧) الطهارة والدارمي (١/١٦٨) ، والحاكم (١/ ١٣٠) وقال صحيح على شرط الشيخين ولست أعرف له علة، وصححه الألباني بطرقه في الإرواء (٤١٢) .

تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [الأحقاف: ١٣] ، بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه استقامت الجوارح كلها على طاعته ، فإنَّ القلب هو مالك الأعضاء ، وهى جنوده ، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه (١) .

والخلاصة أن أهل الاستقامة هم الذين تنزل عليهم ملائكة الله عز وجل عند الموت بالبشارة بالجنة والنجاة من النار ، إشارة إلى أنهم يوفقون للخاتمة الحسنة ، التى تكون سببًا فى دخول الجنة والنجاة من النار، نسأل الله من فضله العظيم ، وخيره العميم .

٣ ـ ومن أسباب حسن الخاتمة الصدق :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩]، ووصف الله عز وجل المهاجرين الذين هم أشرف الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ بالصدق فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] فهم أصدق الناس إيمانا ، وأصدقهم فى القول والعمل فالصدق من أعظم أسباب حسن الخاتمة .

عن شداد بن الهاد ﷺ أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك ، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة غَنِمَ النبى ﷺ سبيًا فقسم وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا ؟ قالوا : قِسْمٌ قسمه لك النبى ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك قال: ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك ، على أن أرمى هاهنا ، وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأدخل الجنة فقال : إن تصدق الله يصدقك .

فلبثوا قليلا ثم نهضوا فى قتال العدو ، فأتى به النبى ﷺ يحمل قد أصابه السهم

(١) «جامع العلوم والحكم» باختصار (١/ ٥١٠ ـ ٥١٢) بتحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس ط. مؤسسة الرسالة.

حيث أشار . فقال النبى ﷺ : أهو هو : قالوا : نعم : قال: صدق الله فصدقه .

ثم كفنه النبى ﷺ فى جبة النبى ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته : اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فقتل شهيدًا، أنا شهيد على ذلك » (١) .

فالعبد إذا صدق فى إيمانه وفى أقواله وأفعاله يوفق لحسن الخاتمة وينال سعادة العاجلة والآجلة .

٤ ـ ومن أسباب حسن الخاتمة المبادرة بالتوبة إلى الله عز وجل ورد المظالم :

قال الله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١] .

وقال : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾

[التحريم : ٨]

وقال النبى ﷺ : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢) .

فمن بادر بالتوبة قبل حشرجة الموت حسنت خاتمته وعاقبته ومن اختطفه الموت قبل التوبة أحاطت به الحسرة والندامة وكان من المفرطين فنسأل الله أن يوفقنا لتوبة نصوح قبل الموت.

فالبدار البدار إلى التوبة ، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه مجهود الأطباء واختبارهم ، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين ، ووعظ الواعظين ، وتحق الكلمة عليه أنه من أصحاب الجحيم (٣) .

---

(١) رواه النسائى (٤/ ٦٠ ـ٦١) الجنائز ، وصححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى رقم (١٨٤٥).

(٢) رواه الترمذى (١٣/٥٨عارضة) الدعوات ، وأحمد (٦١٦٠شاكر)، وابن ماجة (٤٢٥٣) والحاكم (٤/٢٥٧) التوبة وصححه ووافقه الذهبى وقال الترمذى: حسن غريب، وقال العلامة أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وحسنه الألبانى .

(٣) « تذكير النفوس المؤمنة » الشيخ أحمد فريد (ص٦٦ ـ ٧٦) باختصار.

علامات سوء الخاتمة عند الموت

قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ : وقد خُذِل خلق كثير عند الموت ، فمنهم من أتاه الخذلان من أول مرضه ، فلم يستدرك قبيحًا مضى، وربما أضاف إليه جورًا فى وصيته ومنهم من فاجأه الخذلان فى ساعة اشتداد الأمر ، فمنهم من كفر ، ومنهم من اعترض وتسخط ، نعوذ بالله من الخذلان.

وهذا معنى سوء الخاتمة وهو أن يغلب على القلب عند الموت الشك أو الجحود ، فتقبض النفس على تلك الحالة ، ودون ذلك أن يتسخط الأقدار (١) .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلى ـ رحمه اللـه ـ :

واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسبابًا ، ولها طرق وأبواب، أعظمها الإنكباب على الدنيا ، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصى الله عز وجل ؛ وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية ، وجانب من الإعراض ، ونصيب من الجرأة والإقدام ؟ فملك قلبه، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجحت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك ، فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين المراد. ولا علم ما أراد . وإن كرر عليه الداعى وأعاد .

قال: ويروى أن بعض رجال الناصر نزل الموت به ، فجعل ابنه يقول : قل لا إله إلا الله فقال : الناصر مولاى ، فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك ، ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاى، وكان هذا دأبه ، كلما قيل له قل لا إله إلا الله ، قال : الناصر مولاى ، ثم قال لابنه : يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك ، والقتل القتل ، ثم مات.

وقيل لآخر ممن أعرفه ـ قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا

---

(١) « الثبات عند الممات » (ص٧٨) ط دار الأندلس جدة.

فيها كذا ، والبستان الفلانى افعلوا فيه كذا .

قال : وفيما أذن لى أبو طاهر السلفى أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده ده وازده ، تفسيره: عشرة بأحد عشر وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟

قال : وهذا الكلام له قصة ، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها فى داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا ، وتقر به عيوننا فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين . وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها . فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم تخنه فى شىء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشى فى الطرق والأزقة ويقول :

يارب قائلة يوما ، وقد تعبت   :كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

فبينما هو يوما يقول ذلك ، إذا بجارية أجابته من طاق :

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها   حرزًا على الدار أو قفلا على الباب

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل على ذلك ، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفا من الذنوب، فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا. وإنما أبكى من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت. فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكرالإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمي عليه ثم يفيق ويقرأ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] .

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون له فساد فى العقد أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ، ويصطلم (١) قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله.

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصرانى ، فاطلع فيها ، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليه ، ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: لقد سبيت لبى ، وأخذت بمجامع قلبى، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، وقال: أتزوجك؟ قالت:أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه.

قال : ويروى أن رجلاً علق شخصًا فاشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه ، حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه ، وتمنع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده ، فأخبره بذلك الناس ، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه ، وجعل ينتظره للميعاد الذى ضرب له ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعى بينهما ، فقال: إنه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته ، فقال: إنه ذكرنى وفرح بى ، ولا أدخل مدخل الريبة ، ولا أعرض نفسى لمواقع التهم ،

(١) الاصطلام : الاستئصال.

فعاودته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس أسقط يده ، وعاد أشد مما كان به ، وبدت عليه علائم ، فجعل يقول فى تلك الحال:

يا سلم يا راحة العليـــل ويا شفا المدنف النخـيل

رضاك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يا فلان اتق الله، قال: قد كان ، فقمت عنه ، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذا بالله من سوء العاقبة، وشئوم الخاتمة [1] .

(١) « الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » ابن القيم ص٢١٢ ـ ٢١٥.

علامات سوء الخاتمة عند التغسيل

قال فى تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان : ولقد حدثنى عدد ممن يغسلون الموتى من مناطق مختلفة ، عن بعض ما شاهدوه أثناء التغسيل من هذه العلامات ، والغريب فى الأمر أنهم يتفقون على صفات معينة، يرونها على هؤلاء الموتى، وأكثر هذه الحوادث متشابهة ، من ذلك أن الرجل الذى يموت على الخير يبدو وكأنه نائم وأما من مات على خلاف ذلك فيظهر عليه الفزع وخوف الموت، مع تغير فى وجهه ، ولقد غسلت وشاركت فى التغسيل ورأيت بعض ذلك والحمد لله.

حدثنى أحدهم فقال : غسلت رجلاً، وكان لونه مصفرًا ، وفى أثناء التغسيل أخذ لونه يتغير إلى السواد من رأسه إلى وسطه فلما انتهيت من التغسيل فإذا به قد أصبح كالفحمة السوداء .

قال: وميت آخر كان وجهه أثناء التغسيل متوجهًا نحو كتفه الأيسر ، فلما أرجعته نحو الكتف الأيمن عاد إلى الجهة اليسرى ، حتى لما وضعته فى قبره ووجهته نحو القبلة انصرف وجهه عنها إلى أعلى.

وحدثنى مغسلٌ آخر أنه غسل رجلاً وكان لونه مصفرًا ، فلما فرغوا من التغسيل إسود وجه ذلك الرجل فقلت له : أسود مثل لحيتى؟ قال: أسود كالفحم ، قال: ثم صار يخرج من عينيه دم أحمر وكأنه يبكى الدم والعياذ بالله.

وحدثنى مغسل آخر فقال: دخلت ذات مرة على بعض الإخوان وهم يغسلون ميتًا فرأيت وجهه مسودًا كأنه قرص محترق ، وجسمه أصفر، ومنظره مخيفًا ، ثم جاء بعض أهله لينظروا إليه فلما رأوه على تلك الصورة فروا هاربين خوفا منه [١] .

---

(١) تذكرة الإخوان باختصار (٤٧ ـ ٤٨) .

علامات سوء الخاتمة عند الدفن

قال أحد الفضلاء : كنا في رحلة دعوية إلى الأردن ، وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت ، وبينما نحن جلوس فى المسجد وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعى وهم يصيحون أين الشيخ ؟ أين الشيخ ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقالوا له: يا شيخ عندنا شاب توفى صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى وإننا عندما حفرنا قبره . إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم فى القبر ، ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف؟

يقول الراوى : فقام الشيخ وقمنا معه وذهبنا إلى المقبرة ، ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعبانا عظيمًا قد التوى : رأسه فى الداخل وذنبه من الخارج ، وعينه بارزة يطالع الناس.

قال الراوى : فقال الشيخ دعوه واحفروا له مكانًا آخر.

يقول : فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتى متر تقريبًا ، فحفرنا وبينما نحن فى نهايته إذ بالثعبان يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ : لو حفرنا ثالثا ورابعًا سيخرج الثعبان فما لـنا حيلة إلا أن نحاول إخـراجه .

يقول الراوى : فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا وخرج من القبر وجلس على شفيره والناس كلهم ينظرون إليه ، وأصاب الناس ذعرٌ وخوف ، حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت .

يقول الراوى :

وبينما جىء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار ، ثم دخل من أسفل القبر فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت وبدأ من رجليه حتى وصل رأسه ثم اشتد عليه فحطمه : يقول الراوى : إنا كان نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث .

يقول الراوى : ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر، وإذا الحال كما هى عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت وما استطعنا أن نفعل شيئا .

وقال الشيخ : اردموه ، فدفناه ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب ؟ فقال: إنه كان طيبا مطيعًا إلا أنه كان لا يصلى، نعوذ بالله من سوء الختام (١) .

وقد ورد فى تذكرة القرطبى قصة مشابهة :

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : وأخبرنى صاحبنا الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد القصرى رحمه الله أنه توفى بعض الولاة بقسطنطينية ، فحفر له ، فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذ بحية سوداء داخل القبر ، فهابوا أن يدخلوه فيه فحفروا له قبرًا آخر، فإذا بتلك الحية ، فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً، وإذا بتلك الحية تتعرض لهم فى القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيه ، فلما أعياهم ذلك سألوا ما يصنعون ؟ فقيل لهم : ادفنوه معها نسأل الله السلامة والستر فى الدنيا والآخـــرة (٢) .

علامات سوء الخاتمة بعد الدفن

فمن ذلك قصة الرجل الذى نبذه القبر فى عهد النبوة :

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان منَّا رجلٌ من بنى النجار قد قرأ «البقرة ، وآل عمران » ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب، قال:

(١) رسالة عاجلة إلى المسلمين (٤٦ ـ ٥٠) وقال المصنف : سمعتها من الشيخ . سعيد بن مسفر ثبتنا الله وإياه.
(٢) التذكرة (١ / ١٧٠) .

فرفعوه، قالوا : هذا قد كان يكتب لمحمد ﷺ.

فأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم ، فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، ثم عادوا فحفروا له فواروه ، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، فتركوه منبوذًا (١) .

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ : قال حدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الوزير الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر «بآمد» إلى بستان قال: فلما كان بعد غروب الشمس توسطت القبور ، فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت فى وسطه ، فجعلت أمسح عينى وأقول : أنائمٌ أنا أم يقظان ؟ ثم التفت إلى سور المدينة ، وقلت: والله ما أنا بنائم ، ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل . ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس قد توفى ذلك اليوم (٢) .

(١) رواه البخارى (٦/ ٦٢٤) الأنبياء ، وأحمد ٣/ ٢٢٢) .

(٢) الروح (٩٨) نقلا عن « تذكير النفوس المؤمنة » (ص٦١ ـ ٦٥) باختصار.

أسباب سوء الخاتمة (نسأل الله العافية)

١ ـ فساد المعتقد والتعبد بالبدع :

قال العلامة صديق حسن خان فى أسباب سوء الخاتمة :

منها الفساد فى الاعتقاد ، وإن كان مع كمال الزهد والصلاح، فإن كان له فساد فى اعتقاده مع كونه قاطعًا به ، متيقنا له غير ظان أنه أخطأ فيه، قد ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده ، فإن خروج روحه فى هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الإيمان يختم له بالسوء ، فيكون من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر :٤٧] .

وقال فى آية أخرى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

[الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤]

فإن كل من اعتقد شيئًا على خلاف ما هو عليه إما نظرًا برأيه وعقله، أو أخذًا ممن هذا حاله ، فهو واقع فى هذا الخطر ، ولا ينفعه الزهد والصلاح ، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله (١) .

٢ ـ ومن أسباب سوء الخاتمة مخالفة الباطن للظاهر :

فقد يكون العبد بظاهره يعمل بطاعة الله عز وجل، ولكنه يبطن النفاق أو الرياء ، أو يكون فى قلبه دسيسة من دسائس السوء كالكبر أو العجب، فيظهر ذلك عليه فى آخر عمره، ويختم له به فتكون الخسارة الأبدية والهلاك الأخروى ، كما فى قصة الذى كان يقاتل مع رسول الله ﷺ ويبلى أحسن البلاء ، ولكنه لم يكن ذلك لله عز وجل، أو من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، فلما جرح استعجل الموت فانتحر، فقال النبى

---

(١) يقظة أولى الاعتبار (٢٠٥) ط. دار الفتح بتحقيق د. أسامة عبد العظيم حمزة.

ﷺ : « **إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار** » [١] .

فقوله ﷺ : « **فيما يبدو للناس** » يدل على أن باطنه خلاف ظاهره، ولا يمكن أن تسوء خاتمة من صلح ظاهره وباطنه والله أعلم .

٣ ـ ومن أسباب سوء الخاتمة الإصرار على المعاصي وإلفها :

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : ومن عقوباتها (أي الذنوب والمعاصي) أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه ، فإن كل أحدٍ يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده.

إلى أن قال : هذا وثَمَّ أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار ، والانتقال إلى الله ، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك[٢] .

وقال الذهبي : ما من ميت يموت إلا مُثِّلَ له جلساؤه الذين كان يجالسهم ، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج فقيل له : قل لا إله إلا الله فقال : شاهك ثم مات . فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب ، فقال عوض كلمة التوحيد: شاهك وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس شراب الخمر ، أنه حين حضره الموت فجاءه إنسان يلقنه الشهادة فقال له : اشرب واسقني ثم مات.

فلا حول ولا قوة إلا بالله [٣] .

قال عبد الحميد السحيباني : إذا ألف الإنسان المعصية ولم يتب منها، فإن الشيطان يستولي على تفكيره ، حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، فإذا أراد أقرباؤه أن يلقنوه الشهادة ليكون آخر كلامه لا إله إلا الله طغت هذه المعصية على تفكيره ، فتكلم بما يفيد اشتغاله بها ، وختم له بالسوء ، ألا يخشي الذين يتعاملون بالربا ثم لا يتوبون ولا يذكرون أن يتخطفهم الموت وهم على هذا الجرم العظيم والذنب الكبير [٤] .

---

(١) رواه البخاري (٧ / ٥٣٨) المغازي .

(٢) الداء والدواء (١٤١) .

(٣) الكبائر .

(٤) رسالة عاجلة إلى المسلمين (٢٥ ـ ٢٦).

قال العلامة صديق حسن خان :

فإن من له إصرار عليها ويحصل فى قلبه إلفها وجميع ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره عند موته، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات وإن كان ميله إلى المعاصى أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصى، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة أو معصية من المعاصى ، فيتقيد قلبه بها، ويصير حجابا بينه وبين ربه ، وسببًا لشقاوته فى آخر حياته ، فطول الإلف بالمعاصى يقتضى تذكرها عند الموت، وعودها فى القلب وتمثلها فيه، وميل النفس إليها وإن قبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء[١].

٤ ـ ومن أسباب سوء الخاتمة حب الدنيا :

قال العلامة صديق حسن : فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله تعالى فيه ويقوى حب الدنيا فى قلبه ، ويستولى عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله تعالى ، إلا من حيث حديث النفس ، بحيث لا يظهر له أثره فى مخالفة النفس ، ولا يؤثر فى الكف عن المعاصى ، ولا فى الحث على الطاعات ، فينهمك فى الشهوات وارتكاب السيئات ، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب فلا تزال تطفى ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه ، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفًا فى قلبه ، لما يرى أنه يفارق الدنيا وهى محبوبة له ، وحبها غالبًا عليه لا يريد تركها، ويتألم من فراقها ، ويرى ذلك منه الله تعالى فيخشى أن يحصل فى باطنه بغضه تعالى بدل الحب ، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضنا ، فإن كان خروج روحه فى اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء [٢].

٥ ـ ومن أسباب سوء الخاتمة العدول عن الاستقامة :

فالاستقامة على دين الله عز وجل والالتزام بشريعته نعمة من الله عز وجل، ومن شكر هذه النعمة الاعتراف بها باطنًا والتحدث بها ظاهرًا، والاجتهاد فى طاعة الله عز وجل ودعوة الناس إلى دين الله عز وجل فمن ترك الاستقامة فقد كفر هذه النعمة

(٢) يقظة أولى الاعتبار (٢٠٥ ـ ٢٠٦) . (٢) يقظة أولى الاعتبار (٢٠٧) .

العظيمة ، والشكر قيد النعم والكفر من أعظم أسباب زوالها ، فمن ذاق طعم الإيمان ، وعرف طريق الرحمن ، ثم تنكبه وأعرض عنه ، واختار طرق الضلال عليه ، وآثر الغى على الرشاد ، والضلالة على الهدى ، والفجُور على التقى ، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

[الزمر: ٦٥ ـ ٦٦]

ونحن فى أمة كثرت فيها الإحن والمحن والفتن ، فتن الشهوات والشبهات ، فالواجب على الشباب المسلم الملتزم بدين الرحمن أن يزداد تمسكًا وأخذًا بأسباب الثبات على الدين ، والحذر من وساوس الشياطين، والاجتهاد فى الطاعات والعبادات ، حتى تقوى شجرة الإيمان فى قلبه ، فلا تزعزعها رياح الشهوات والشبهات ، وحتى يثبت على الإيمان فى الحياة وعند الممات ، فقد وعد الله عز وجل أهل الإيمان بالتثبيت فقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، بل وعد الله عز وجل أهل الهداية بمزيد من الهداية فقال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم : ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر : ٣١] .

فالمؤمن ينبغى عليه أن يأخذ بأسباب زيادة الإيمان والالتزام بدين الرحمن ، ومن تساوى يوماه فهو مغبون ، أما من يتهاون فى دينه ويتساهل في تنفيذ أوامر الله عز وجل ويتجرأ على حرمات الله ويتعرض للفتن فلا يلومن إلا نفسه . ومن أعطى أسباب الفتنة من نفسه أولا لم ينجو آخرًا وإن كان جاهلاً ، ومن سمح لقدمه أن تنزلق فلا يدرى أين تصل قدمه .

٦ ـ ومن أسباب سوء الخاتمة تعلق القلب بغير الله عز وجل:

فمهما تعلق القلب بالله عز وجل فإنه يسعد فى الدنيا والآخرة، ومهما تعلق بغير

الله شقى فى الدنيا والآخرة ففى القلب فقر واضطرار إلى الله عز وجل، لا يسعد إلا بمعرفته ، ولا يطمئن إلا بطاعته وعبادته وذكره ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] ، فإذا تعلق القلب بغير الله محبة أو توكلاً أو خوفا أو رجاء لابد أن يشقى العبد قال النبى ﷺ : « **تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة وعبد القطيفة..** » [١] فالقلب يشقى بإعراضه عن الله عز وجل وتعلقه بغيره :

أنـت القتـيلُ بكـل مَـنْ أحببـتَهُ فَاختر لِنفسكَ فى الهَوَى مَن تَصْطَفِى

وكذا تعلق القلب بغير الله عز وجل من أسباب سوء الخاتمة، ولذا نهى الله عز وجل أن يزداد حب العبد لابنه وأبيه وأخيه وزوجته وماله فيكون أكثر من حبه لله عز وجل ، أو لرسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾

[التوبة: ٢٤]

فلا يجوز للعبد أن يعلق قلبه بغير الله عز وجل ، لأن ذلك قد يغلب على قلبه، ويشغل خاطره فينشغل بذلك عن ذكر الله عز وجل[٢] .

(١) رواه البخارى (٦/ ٥٩) الجهاد و (١١/ ٢٥٧) الرقائق.
(٢) «تذكير النفوس المؤمنة» (ص٢٧ ـ ٥٢) باختصار .

قصيدة « ليس الغريب »

مَنْ هُوَ الغَرِيْبُ؟ قَالَهُ «زَيْنُ العَابِدِينَ » أحَدُ زُهَدَاءِ الزَّمَانِ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ

لَيْسَ الغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّامِ واليمَنِ ... إنَّ الغَرِيْب غَرِيْبُ اللحْدِ وَالْكَفَن

إنَّ الغريبَ لهُ حقٌ لِغُرْبتِهِ ... عَلَى الْمقيمينَ فى الأوطانِ والسكنِ

لا تَنْهَرنَّ غريبًا حالَ غُرْبَتِهِ ... الدَّهرُ يَنْهرُهُ بالذل والمِحَنِ

سَفَرِى بَعيدٌ وزادى لن يُبَلغَنى ... وقُوَّتى ضَعُفَتْ والموتُ يطْلُبُنى

ولىْ بقَايَا ذنوبٍ لَسْتُ أعلَمُها ... الله يعْلمُها فى السرِ والعَلَنِ

ما أحلَمَ الله عَنِّى حيثُ أمْهلَنى ... وقدْ تَمادَيْتُ فى ذنْبى ويسْتُرنُى

تمـرُّ ساعاتُ أيامِى بِلا نَدمٍ ... ولا بكاءٍ ولا خوفٍ ولا حزَنِ

أنا الذى يُغلقُ الأبوابُ مُجتهدًا ... على المَعاصى وعينُ الله تنظُرُنى

يا زَلَّةً كُتبَتْ فى غَفْلةٍ ذَهَبَتْ ... يَا حَسْرةً بَقِيَتْ فى القَلْبِ تَحْرِقُنى

دَعْنى أنوحُ على نفْسِى وأنْدبُهُا ... وأقْطَعُ الدهرَ بالتفكيرِ والحزَنِ

كأنَّنى بَيْنَ تلكَ الأهلِ مُنْطَرِحٌ ... عَلَى الفراشِ وأيْديهم تُقلبُنى

كأنَّنى وَحولِى مَنْ يَنُوحُ ومَنْ ... يَبْكِى عَلَىّ ويَنْعانى وَيَنْدُبُنى

وقد أتَوْا بالطبيبِ كى يُعالجَنى ... ولمْ أر الطبيبَ اليومَ ينفعُنِى

واستَخرَجَ الرُوحَ منى فى تغرْغُرِها ... وصارَ ريقى مَريرًا حيْنَ غرْغرَنى

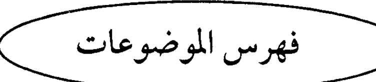
واشْتدَّ نَزْعى وصارَ الموتُ يجذبُها ... من كلُ عِرقٍ بِلا رفقٍ ولا هوْنِ

وسَل رُوحى وظلَّ الجِسْمُ مُنطرِحًا ... بين الأهالِى وأيْديهم تُقلبُنى
وغمَّضونى وشدُّوا الحلْقَ وانصرَفُوا ... بعدَ الإياسِ وجدُّوا فى شرَى الكَفَن
وسارَ مَنْ كانَ أحبَّ الناسِ فى عَجَلٍ ... نَحْوَ المُغْسَل يأتِينى ليغسلَنى
وأضْجَعونى علَى الألْوَاحِ مُنْطَرِحًا ... وقامَ فى الحالِ منْهمْ مَنْ يُغَسلُنى
وأسْكَبَ الماءَ مِن فوقى وغَسَّلنى ... غُسْلا ثلاثًا ونادَى القومَ بالكفَنِ
والْبسونِى ثيابا لا كِمامَ لَها ... وصارَ زادِى حنُوطى حين حنَّطَنى
وأخْرجُونى مِنَ الدنْيا فوَا أسَفَا ... على رَحيلٍ بلا زاد يُبلغُنى
وحَمَّلُونى على الأكتافِ أربعةَ ... من الرجَالِ وخَلْفِى مَنْ يُشيعُنى
وقدمُونى إلى المِحْرابِ وانصرَفُوا ... خَلْفَ الإمَامِ وصلَّى ثم ودَّعَنِى
صلُّوا علىَّ صلاةً لا رُكُوعَ لَها ... ولا سجودَ لَعلَّ الله يرحمُنِى
وأنْزلونُى إلى قَبْرِى على مَهَلٍ ... وقدمُوا وَاحِدًا مِنْهم يُلَحِّدُنِى
وكَشَفَ الثوبَ عَنْ وَجْهِى لِينظُرَنِى ... وأسْبَلَ الدَّمعَ من عين وقبَّلَنى
وقالَ هِلُوا عليْهِ التُّرابَ واغْتَنِمُوا ... فضْلَ الثواب وكُلُّ الناسِ مُرْتَهِن
وهَالنى إذْ رأتْ عينَاى إذْ نَظَرَتْ ... مِنَ هَوْلِ مُطَّلَعٍ إذْ كانَ أغفلَنى
مِنْ مُنْكرٍ ونَكيرٍ مَا أقولُ لَهُمْ ... قَدْ هَالَنِى أمْرُهُمْ جدًا فأفزعَنى
وأقعدُونى وجَدُّوا فى سُؤالِهمُ ... مَالِىْ سِوَاكَ إلهى مَنْ يُخلصنى
فأمنِنْ علىَّ بعفوٍ مِنْك يا أملى ... أمْنِنْ على تاركِ الأوْلادِ والوطَن
تقاسَمَ أهْلِى المِيْراثَ وانْصَرفُوا ... وصارَ وزْرى على ظهْرِى يُثْقلُنِى

واستَبدَلَتْ زوْجَتى بعْلاً لَها بَدَلِى — وحكَّمتْهُ فى الأمْوالِ والسَّكَنِ
وصيَّرَتْ ابْنى عَبْدًا ليخْدِمَه — وصارَ مَالى لَهُمْ حِلاً بِلا ثَمَن
فَلاَ تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيا وزُخْرفُهَا — انْظُرُ لأفعالها بالأهْلِ والوَطَن
وانْظُرُ إلى مَنْ حَوَى الدُّنْيا بأجْمَعِها — هَلْ رَاحَ مِنْهَا بغيرِ الحُنْطِ والكفَنِ ؟
خُذِ القناعَةَ مِنْ دُنْياكَ وارضَ بِهَا — لَوْ لَمْ يكُنْ فيها إلا راحَةُ البَدَن
يَازَارِعَ الخيْرِ تَحصُد بعْدَه ثمرًا — يا زارعَ الشّرِ موْقُوفٌ على الوَهَنِ
يا نفسُ كُفى عن العِصْيانِ واكْتسبى — فَضْلاً جميلاً لعلَّ الله يرْحمُنى
يا نفسُ ويْحَكِ تُوبى واعْملى حَسَنا — عَسَى تُجازيْنَ بعْدَ الموتِ بالحَسَنِ
ثُمَّ الصلاةُ عَلَى المخْتَارِ سَيِّدِنا — ما ضَاْضَا البَرْقُ فى شَامٍ وفى يَمَن
والْحَمْدُ لله مُمْسِينَا ومُصْبِحنا — بالخَيْرِ والعَفْوِ والإحْسَانِ والمِنَنِ

❊ ❊ ❊





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *